رواية





قليلٌ من الموت

مناف زيتون

نوفل

رواية

قليلٌ من الموت

مناف زيتون



نوفل

الطبعة الثانية، 2015
صدر عام 2013 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان.

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورِست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/hachette-antoine
twitter.com/NaufalBooks

تصميم الغلاف: **معجون**
صورة الغلاف: **Shutterstock**
تصميم الداخل: **ميشلين خوري**
طباعة: **53Dots**

ر.د.م.ك.: 978-9953-26-696-1

«نأتي من هاوية مظلمة وننتهي إلى مثيلتها، أمّا المسافة المضيئة بين الهاويتين فنسمّيها الحياة. لحظة نولد تبدأ رحلة العودة. الانطلاق والعودة في آن واحد. كلّ لحظة نموت. لهذا جاهر الكثيرون بأنّ هدف الحياة هو الموت.»

نيكوس كزانتزاكيس
تصوّف

الثلاثاء 13 تشرين الأوّل 2009

لم يكن يرى شيئًا. أشدّ ظلام عاينه في حياته. لا شيء حوله يظهر من أي شيءٍ، لا تفاصيلَ توحي له بالمكان. ظلام ولا شيء سوى الظلام. تحسّس ما حوله؛ كانت يداه ترتطمان بجدران قريبة منه إلى حدّ الالتصاق، حاول تحريك قدميه، ولكن ما من مساحة يحرّكهما فيها. حتّى الهواء الذي يتنفّسه، شعر به يتكرّر، كما لو أنه يتنفّس من كيسٍ بلاستيكي، كما لو أن رئتَيه تقومان بتكرير الهواء الذي يزفره.

لم يفهم بدايةً أين هو. لم يتذكّر شيئًا سوى لحظات مشوّشة في ذهنه، زوجته وابنتاه بقربه، كنَّ جميعًا يصرخن، وجوه ضيوفه مذعورة، والكثير من الصراخ: «اطلبوا الإسعاف... اطلبوا الإسعاف». لا يتذكّر قدوم الإسعاف، ولا إلى أين ذهب به هذا الإسعاف.

حين فقد الأمل من معرفة شكل المكان، حاول أن يعرف طبيعته. تحسّس الجدران القريبة منه حتّى يعرف ما هي. ملمسها ناعم جدًّا، ولكنها صلبة، صلابتها متوسطة، مع بعض التّحسس إلى درجة الخشونة (أو النعومة). عرف أنها مصنوعة من الخشب، ولكن تحجبها عنه بطانة ناعمة وطرية، حريرية أو قطنية. نقر عليها عدة

مرات فعرف أنها مصنوعة فقط من الخشب، ليستْ جدرانًا مكسوّة بالخشب، إنما مجرّد خشب.

حاول أن يتحرّك ليجد زرًّا يُشغَّلُ منه الضوء، ولكن لا شيء، أو بالأحرى، لا حركة. فهو لم يتمكّن من الحراك إلا لسنتيمتراتٍ قليلة، يبتعد عن أحد الجدارين الخشبيين الذَين يحيطان به ليلتصق بالجدار الآخر. لم يستطع أن ينهض، لم يستطع إلّا أن يبقى مستلقيًا.

ظنّها إحدى الطرق العلاجية التي لا يفهمها، وأنه ربّما هو الآن في فرنسا أو لبنان أو الأردن، لا بدّ وأنّه مصابٌ بشيءٍ ما. وحين وقع في اللّحظات الأخيرة التي يتذكّرها، نقلته عائلته فورًا إلى أفضل المشافي اللّبنانية أو الفرنسية أو الأردنية لعلاجه.

ظنّ أن الأطبّاء سيلاحظون - ولا بدّ - استرجاعه لوعيه، وسيأتون مهرولين ليخرجوه من هذا الجهاز ويقيسوا مؤشّراته الحيوية، فقرّر أن ينتظر قدومهم. لم يقلق كثيرًا، فهو رغم قلّة ذهابه إلى الأطبّاء، كان يثق بهم لسببٍ يجهله. كان يكفيه أن يرى شهادةً طبيةً وبعض الخبرة المكتسَبة من العمل في المشافي على مقربةٍ من المرضى، كي يثق بالطبيب ويسلّمه حياته.

بقي منتظرًا وأخذ يتساءل عن المدّة التي قضاها في هذه المستشفى، وأخذ يحسب في ذهنه حجم خسائره بسبب توقّفه عن العمل. لم يجد طريقة ليعرف، فالظلام الحالك الذي هو فيه يمنعه من أن يرى أيّ ساعة معلّقة على الحائط. تحسّس يده فوجد أن ساعته ما زالت فيها. حاول أن يضغط على الزّر الذي يجعلها تضيء حتّى يرى كم الساعة واليوم والشهر، لكنّه عجز عن تحريك يده باتّجاه عينيه كي يقرأ الأرقام.

كان الجميع يهزأون به لارتدائه ساعةً تضيء، وهو من أكبر تجار العقارات في دمشق، ولكنها كانت الذكرى الوحيدة الباقية له من والدته التي فارقت الحياة وهو لا يزال في الرابعة والعشرين من عمره. كانت قد أهدته إياها في مناسبة عيد ميلاده قبل أن تموت.

في تلك اللحظة، راوده سؤال غريب: لماذا يتركون رجلًا في العناية المشدّدة مرتديًا ساعته؟

تحسّس عنقه بذقنه ليعرف إن كانوا قد تركوا صليبه الذهبي. لم يستطع أن يتحسّس صليبًا، بل ربطة عنقٍ. ثمّ تحسّس ما استطاع تحسّسه من جسده. كان يرتدي معطفًا رسميًا هو متأكدٌ تمامًا أنّه لن يرتديَه في شهر تشرين الأول الذي لا يزال دافئًا، وأكثر تأكّدًا أنه لن يرتديَه في مستشفى. حينها، عرف أنه - ولا بد - ليس في المستشفى.

تذكر أنهم، حين دفنوا أمّـه، كانوا قد ألبسوها أجمل ثوبٍ تملكه، وكان والده حينها قد أصرّ على أن تُلبَس كلّ ما لديها من حِلًى ذهبية، فتساءل كم مرّة ينبغي لذكرى أمّـه أن تـراوده في الأوقات الغريبة كهذه.

استطاع أخيرًا أن يجد رابطًا بين كلّ ما حوله: الظّلام والخشب والمكان الضّيق والبزّة الرسمية والساعة، وتجاهُل كلّ من حوله له، ثمّ فكّر في أمرٍ مضحكٍ: جميع من حوله هم أموات، وليس في مقدورهم أن يقيسوا مؤشّراته الحيوية، وإن كانوا في حيواتهم من أفضل الأطبّاء في العالم. سوى ذلك، لم يجد شيئًا مضحكًا في الحقيقة التي اكتشفها للتوّ.

فقد عرف أنّه قابعٌ في قبره. إنّه في المكان الوحيد الذي لم يتمنّ يومًا أن يراه. حتّى أثناء دفن والدته، لم يقترب ليرى المكان

الذي ينزلونها إليه، ولم يحاول أن يقدّم أدنى مساعدة لهم. علم حينها أنّه سيضطرّ إلى مشاهدة المكان الذي سينتهي إليه يومًا ما، ولكن لم يتوقّع أن ينتهيَ إليه بهذه السّرعة وبهذه القسوة. شعر باختناق غريب، شعر بخوفٍ لا مثيل له، شعر بأنه بحاجة للبكاء، وبدأ الذعر ينال منه. وما زاد من خوفه ورغبته بالبكاء هو إدراكه لِحقيقة مزعجة: أمّه أيضًا هنا!

الهواء... صار يفكّر في الهواء، هل سيكفيه؟ كم هو بالضبط حجم الحجرة التي هو فيها؟ وهل يسمح تصميم التابوت بنفاذ الهواء إلى داخله؟ كم من الوقت سيبقيه هذا الهواء حيًّا؟ كم من الجثث هنا؟ كم من التّوابيت والأخشاب هنا؟ وكم تشغل حيّزًا لا يسمح بوجود الهواء؟

على الرّغم من أن الهواء كان يشغل باله، ومن أنه بات يقوم بكل ما أمكنه ليقنّن من استهلاكه له، إلا أن الذّعر تمكّن منه وباتت أنفاسه تترافق مع شهقات هي أقرب إلى صوت البكاء.

ماذا بعد؟ أخذ يفكّر في أنه حتّى لو بقي لعشر ساعات حيًّا ويتنفّس، فما الذي سيفعله بعد ذلك؟ كيف سيخرج؟ كيف سيخبر من في الخارج أنّه حيّ؟ في أيّ وقتٍ من النّهار هو؟ وهل هناك أحدٌ في المقبرة؟

تتالت الأسئلة وفكّر في كثيرٍ من التّفاصيل حتّى تعب في النهاية وقرّر أنه سيموت لا محالة... لو كان الهروب من القبر ممكنًا، لكان قد سمِعَ بأحدٍ فعلها، ولكنّه لم يسمع بذلك من قبل. لم يفعلها أحدٌ من قبل.

الموت...

ماذا سيحصل الآن حين يموت؟ تمنّى بدايةً ألّا يكون ما يُقال عن الموت صحيحًا، فذلك يعني أنّ هناك من سيأتي ليعذّبه الآن وأنّه سيعيش لمدةٍ طويلةٍ وهو يعاني من عذابات القبر، أو قد يأتي ذلك الثّنائي ويسأله شيئًا عن إيمانه... عليه أن يتماسك وأن يتأكّد من أنه يعطي الإجابات الصحيحة.

ثمّ خطر له أنّه ميت أساسًا، وأنّ هذه هي مجرّد مقدّمة لما يحصل بعد الموت. لكن ماذا يحصل بعد الموت؟ الحياة الثانية؟ الانتظار حتّى اليوم الأخير الذي يأتي فيه المسيح أو المهدي أو زرادشت أو أي نبيٍّ كان؟ يصبح شبحًا ويتجوّل في المدينة كما رأى في عدة أفلامٍ أميركية! الموت، الموت، الموت...

كانت تلك تشبه حالات الذعر التي كانت تصيبه كثيرًا قبل أن ينام، حين يفكّر في ما يلي الموت، ويبدأ بالهلع لأن كلّ ما هو متأكّد منه ببساطة هو أنّ كلّ شيءٍ سينتهي: حياته مع ابنتيه بيسان وبانة، حياته مع زوجته سلوى، مع أصدقائه أصحاب المحالّ التجارية. حتّى زبائنه فكّر فيهم.

لا دليل لديه على أن هناك شيئًا حين يتوقّف قلبه عن الخفقان، وبات يشعر بحاجة ماسّة ليعرف إن كان الآن ميتًا أو حيًّا. بات هذا السؤال أكثر إلحاحًا شيئًا فشيئًا، يحاول أن يستنتج من لمسه لأطراف التابوت أنه على قيد الحياة، بما أنه يتواصل مع المادة من حوله، لكن ماذا لو كان التّواصل مع المادّة ممكنًا حتّى عند الموت؟

عملية إعادة تصنيع الهواء التي يشعر بها منذ البداية باتت أكثر إزعاجًا، وأفكار سوداء باتت تجول في مخيّلته. كان في المكان الذي لا يرغب أي إنسانٍ في العالم أن يكون فيه. حاول ألّا يختنق، لكنّ الأمر بدا صعبًا حتّى منذ اللّحظات الأولى لاكتشافه هذه الحقيقة المرعبة.

ارتبك وبدأ يتصبّب عرقًا. لم يعرف ماذا يفعل، فالخبرات والمواقف التي مرّ بها في حياته لم تستطع ولن تستطيع حتّى أن تلمّح له بما عليه أن يفعل إن استيقظ ووجد نفسه حيًّا - أو ربّما ميتًا - في قبرٍ، وحده، لا شيءَ يمرّ به الإنسان يستطيع أن يقدّم له ذلك النّوع من الخبرة.

قرّر أن يهدأ. واسى نفسه بأنّ - ولا بدّ - هناك أملًا، وحاول أن يجعل مخاوفه تركن أو تُؤَجَّل قليلًا، فهو يعلم أنّه بهذا الارتباك لن يستطيع التفكير في أيّ حلٍّ مهما كان سهلًا وبسيطًا، لن يستطيع أن يستخدم عقله، ومخاوفه تستنفد كلّ طاقتهِ.

أخذ يفكّر في ما يحصل خارج القبر. أوّل فكرة خطرت له هي الجنازة؛ فكّر للحظة في أنّ جنازته ربّما لم تنتهِ، أو أنّه اليوم ذاته هو يوم دفنه وإحدى بناته تزور القبر وتبكي أمامه، أو أنّ المعزّين والمشاركين في دفنه رحلوا للتو ليأكلوا «لقمة الرحمة»، أو أنهم ما زالوا واقفين قريبًا من القبر وأنّ أحد أقاربه وجدها فرصة جيّدة للتّبجّح، ليقوم بالتّأكيد على أنه المسؤول عن دفع ديونه، أو ليلحّ على الحاضرين أن يأكلوا بقدر المحبة.

متبجّح أبله! هو أساسًا ليس مدينًا لأحد، والطعام الذي يدعو الناس إليه ستدفع ثمنه زوجتُه من أمواله... انتهازيّ مخبول.

تمهّل للحظةٍ مفكّرًا في أنه سيرعب من يسمع الصوت يخرج من القبر، لكن بعد أقلّ من لحظةٍ تذكّر أنه في قبر وقرّر ألّاجديد يهتمّ بمن سيموت داخل القبر أو خارجه، وخصوصًا إن كان هو ذلك المتبجّح. كلّ ما يهمّه هو أنّه حيّ داخل قبر، وأنّ عليه أن يخرج بأيّ ثمن.

بدأ بالصّراخ: «حدا سامعني؟!».

مرّة، مرّتين، ثلاث مرّات، لكن ما من مجيب. أراد أن يشعر بأن الصّراخ قد يأتي بنتيجة، لكنه أدرك بعد عشرات النّداءات أنّ أحدًا لن يسمعه؛ فهو داخل تابوتٍ، والتابوت داخلَ قبرٍ من الإسمنت تحت الأرض.

ضحك للحظاتٍ - رغم كلّ شيء - مفكّرًا في أنّ من اخترعوا فكرة القبور يبدون خائفين من أن يهرب الموتى؛ فالقبر والتابوت لا يتيحان أيَّ مخرجٍ يستطيع أن يخرج منه... الميت.

كلٌّ يتخلّص من موتاه على طريقته. البعض يضع موتاه في غرفةٍ ضيّقةٍ محصّنةٍ كالتي هو فيها على الأغلب الآن، آخرون يَدفنون الموتى تحت التّراب ومن دون تابوت، حتّى إذا أراد الميت التّحرّك يكون ذلك مستحيلًا بسبب وزن التّراب على الجسد وانعدام نفاذ الهواء وإمكانية ابتلاع التراب حتّى إذا استطاع إزاحة الكفن.

حتّى بعض الدّيانات والبلدان الأخرى تتمادى بأن تقوم بإحراق الميت. «تأكدوا أنه ميت، لا تتركوا جزءًا من جسده ليس ميتًا بالتأكيد». البعض يرمون الأجساد في البحر، هكذا، وإن كان الميت ينوي الحياة من جديد، فسيموت غرقًا.

فكّر قليلًا... «لا! لن أسمح لأساليبهم الغبية في سجننا على هذا النحو وقتلنا من جديد بنجاح». قال نحن، وكأنّه يشعر بأنه بات جزءًا من ذاك المجتمع الصّغير السّاكن الذي يحيط به من الموتى، وكأنّه سلّم بأنّه ميت، أو أنّه النّاجي الوحيد من مجزرة دامت لعشرات آلاف السّنين، وعليه الآن أن يقتصّ لقومه الذين سُجنوا في القبور بلا رحمة.

استطاع أخيرًا أن يأخذ نفَسًا طويلًا يستجمع به طاقته ليقوم بما كان عليه أن يقوم به منذ البداية...

بدأ بضرب التابوت. لم يكن قادرًا على إرجاع يديه إلى الخلف كي يضرب بقوّة، فقرّر أن يدفع بدل الضرب. دفع قليلًا ثمّ قليلًا، وكان يزيد من قوة الدفعة كلّ مرة، رغم ظنه أنه وصل إلى الدرجة القصوى من القوّة التي يستطيع إخراجها من يديه، إلا أن حبّ الحياة كان يستخرج منه المزيد. حتّى انفتح غطاء التابوت. كُسرَت حافّته وبقي جزءٌ من الغطاء معلّقًا به. شعر بحرارة في يده، لقد سبّب لنفسه جرحًا في معصمه، ولكنه شيءٌ بسيطٌ هو مستعدٌ لتقديمه من أجل الخروج من هذا المكان.

لم يتأكّد أن غطاء التابوت قد فُتحَ، إلى أن استطاع أن يلوّح بيديه؛ فالنظر لم يكن بالفعل مفيدًا في مكانٍ حالك الظلمة كهذا، قبل فتح التابوت... وبعد فتحه؛ إذ لا فائدة والظلام نفسه يبقى مخيمًا، جاعلًا من ألم عينيه أمرًا اعتياديًا.

لحسن حظّه أنّهم كانوا قد وضعوا تابوته على الأرض، لا على تلك الرّفوف. وإلّا كان خروجه من التابوت سيسبّب له الأذية، وكأن هذه الأذية تُقارَن بأيّ حالٍ من الأحوال ببقائه في التابوت.

استطاع الوقوف على قدميه...

لكنه رغم ذلك لم يكن قادرًا على التّوازن جيّدًا. استطاع أن يتلمّس جدارًا إسمنتيًا هذه المرّة، واتّكأ عليه. لم يكن جدارًا لطيفًا، كان مجرّد جدارٍ يوحي بالموت. رغم الرّطوبة الخانقة التي كانت تحيط به، لم تنمُ أيّ طحالبَ على هذا الجدار؛ فهذا الهواء الملوّث الذي بدأ يفقده توازنه لا بد من أنّه لا يسمح لأيّ مخلوقٍ بالحياة، وانعدام أيّ مرورٍ لأيّ ضوءٍ من الخارج يؤدي دورًا في امتناع الحياة عن الظّهور في القبر.

خطر له أنّ القبر ليس مكانًا نضع الموتى فيه وحسب، بل هو مكانٌ تستحيل فيه الحياة، ونقل الموتى إليه سببه أنهم الوحيدون الذين لا يضرّهم الذّهاب إليه.

لم يعرف إن كان عليه أن يصرخ من جديد. لم يكن يعرف إن كانت هناك فائدة من ذلك أصلًا. ولكن لم يجد شيئًا آخرَ ليفعله، فالظلام المميت الذي حوله كان أكثر من أن يتمكّن من معرفة مكان غطاء القبر. وإن وجده فلن يستطيع وهو في هذه الحال من الضعف أن يرفعه؛ فعلى ما يذكر، إنّ هذا الغطاء من الحجر أو الرّخام، وهو ثقيلٌ جدًّا... هذا ما أخبروه به حين توفِّيَت والدته!

والدته! كم مرة عليه أن يتذكّر والدته في هذا المكان المقزّز؟ كم مرة عليه أن يشعر بقلبه على وشك الانشطار؟ عاوده الشّعور المرير حين طبع القبلة الأخيرة على جبينها، مودِعًا إيّاها التابوت الذي رحلت فيه إلى الأبد. هذه المرّة كان شعوره أكثر مرارة. رغب لو يتخلّى عن محاولته الخروج من القبر، ويعتبر عودته للحياة في القبر مجرّد فرصة ليلقي نظرة أخيرة على جثمان أمه - المتفسّخ الآن ولا بد - قبل أن يموت. لم يعد الموت مخيفًا، لم يعد شيئًا بشعًا مقارنة بذكرى موت أمه التي عاودته.

تذكّر الساعة. أضاءها وحاول أن يكتشف على ضوئها مكان الغطاء، لكنّه لم يستطع أن يتابع، لأنّه كان بحاجة إلى يدٍ واحدة على الأقلّ ليتّكئ على الجدار. فوقوفه على قدميه من دون الاتكاء على شيءٍ كان أمرًا شبه مستحيلٍ. والهواء الرطب والعابق برائحة الموت يجعله يشعر بالدوار أكثر فأكثر، والتوازن على قدميه بدا مستحيلًا بالنسبة إليه.

قرّر أن يهدّئ من روعه، وتذكّر قول أمه: «لا تيأس حين تقع في مصيبة، فكلّ ما تواجهه ليس سوى جزءٍ من خطة الله لكَ».

فكّر حينها في أنه بالتأكيد لم يعُد للحياة في تابوته كي يموت من جديد.

استجمع كامل قواه. كان قادرًا على إصدار صرخةٍ واحدة لا أكثر. لذلك، كان عليه ألا يوفّر أيّ جهدٍ، فقد كانت تلك صرخةً مفصلية: إمّا أن تُسمَع وتنقذ حياة صاحبها، وإمّا أن تموت في الهواء ويموت صاحبها معها.

«أنا ما زلتُ حيًّا...!».

كانت هذه الجملة التي صرخ بها، كانت تلك أفضل عبارة خطرت له، كي يعلم من يسمع الصوت أنه ليس شبحًا، بل شخصٌ حيٌّ في قبره.

لم تكن مشاعر مريحة، تلك التي تراود عُمر، حارس المقبرة. كان يسمع صراخ أنور في المرّات الأولى، ولكن ليس بوضوح. لم يكن صوت الصّرخات مرتفعًا، لكنّه كان كافيًا ليدبّ الذّعر في نفس رجل أربعيني قضى عشرين عامًا بين القبور والظلام والجثث الميتة.

حين صرخ أنور صرخته الأخيرة، انتفض من مكانه وأوقع كأس الشاي وإبريقه. كان الصّوت مرتفعًا واضحًا، وما جعله أكثر إثارة للرّعب هو أنه بالفعل يصدر من تحت الأرض. كان واضحًا ومكبوتًا في الوقت نفسه. هذا ما كان متأكدًا منه، وكأنّه قضى حياته يحسب حسابًا لليوم الذي يسمع فيه صوتًا يخرج من القبر، فبات يعرف بالضّبط كيف سيكون هذا الصّوت... واليوم سمعه، أتى أخيرًا اليوم الذي كان يخشاه منذ زمن وسمع الصّوت الذي ينتظره.

عاودته ذكرى يومه الأوّل في هذا العمل، حين كان يقضي وقته مع أبو سامي، الحارس القديم للمقبرة، أبو سامي الذي لم يجد لنفسه مكانًا في المقبرة التي حرسها أربعين عامًا حين مات. أبو سامي الذي كان يتحدث مع الموتى ويلقي عليهم التحية ويودّعهم حين يذهب. لم يكن الأمر في البداية مريحًا لعمر الذي كان لا يزال شابًّا في العشرين من عمره، لم يكن مشجّعًا له للاستمرار في هذا العمل الذي أرعبه منذ لحظة سماعه به.

تلك المشاعر لم تعد تراوده بعد عشرين عامًا قضاها في هذا المكان، لكن صرخة أنور كانت كافية لتعيده عشرين سنةً إلى الوراء.

لم يعلم ما الذي عليه أن يفعله، قرر أن يسير، أن يهرب بعيدًا عن المكان.

أوّل شخص خطر له هو الأب نقولا، كاهن جديد في دمشق ما زال في الثّلاثين من العمر، متزوّج من امرأة هادئة، امرأة تفوقه هدوءًا. لا تختفي الابتسامة يومًا عن وجهه، كان، كالكثير من الكهنة الذّين يأتون من خارج دمشق في سني خدمتهم الأولى، يحاول أن يكون لطيفًا قدر الإمكان مع رعيّته، وأن يقدم أيّ خدمةٍ تُطلب منه. ربّما كانت هذه الصفة هي ما جعلت اسمه أوّل اسم يخطر ببال عمر، كي يوقظه في ساعة متأخّرة من دون أن يتعرّض للتأنيب.

كان منزله قريبًا من المقبرة. وصل إلى الباب وطرق عليه من دون أن يرنّ الجرس. طرق وطرق وطرق حتّى اللّحظة التي فتح فيها الباب له. كان الأب نقولا مرتديًا رداءه الأسود. رغم الطّرق الذي ينذر بطارئ مؤكّد، لم يودّ أن يظهر إلا بردائه الأسود.

كان شابًّا صغير العمر، طويلًا ونحيلًا، يوحي بكونه راهبًا أكثر منه كاهنًا يعيش حياة زوجية شبه طبيعية. لحيته كثيفة تغطّي وجهه من

دون أن تمتدّ إلى أسفل، توحي بخشوعٍ وببعض التحرّر في آنٍ واحد.
كان يضع نظّارة طبّية بلا إطار، وحدود شعره تصل إلى بداية جبهته.

– عمر؟ ما الأمر في هذه الساعة المتأخرة؟

– هناك أصواتٌ غريبة في المقبرة.

– أي نوعٍ من الأصوات؟

– أصوات إنسان يصرخ.

– لا بدّ وأنّك تتوهّم بسبب مكوثك في ذلك المكان الحزين.

– لا! الصّوت كان متماسكًا وكلماته واضحة: «أنا ما زلتُ حيًّا».

– قد يكون هناك من يبكي عزيزًا فقده... أين المشكلة؟ المهم أن تتأكّد من أنه لا يدنّس حرمة المقبرة.

– أبونا... الصوت يخرج من تحت الأرض، وليس من فوقها.

فجأةً، هرب النّعاس من عينَي الأب نقولا. جرى إلى الدّاخل وطبع قبلة على وجنة زوجته سلمى، الغارقة في النوم. ارتدى حذاءه وأخذ مفاتيح السيارة وجرى مع عمر نحوها. وصلا إلى المقبرة خلال دقيقتين في طريق يستغرق سيرًا على الأقدام نحو خمس عشرة دقيقة.

دخلا مسرعَين. كان الأب نقولا يرفع رداءه ويسير بحذرٍ وسرعة. حين أصبحا في منتصف المقبرة أدركا أنّهما لا يعلمان إلى أين يتّجهان بالضبط.

– من أي مكان كان يصدر الصّوت؟

– لا أدري بالضّبط، إنّما من الجهة الغربية للمقبرة.

فكّر قليلًا. بدأ يزداد قلقًا، فهو لا يعلم بالضّبط ما الذي حصل وما الذي عليه أن يفعله. لا يعلم إن كان عليه أن يبحث عن مصدر الصّوت أو أن يجده حتّى، ربّما كانت هذه الخدمة الأولى التي عليه أن يتردّد في تقديمها...

– إذهب إلى أمام باب الكنيسة واقرأ النّعوات. اِحفظ أسماء الذين دُفنوا اليوم وتعال أخبرني بهم.

– لا داعي أبونا، أنا أحفظهم عن ظهر قلب. أستطيع أن أعطيك أرشيفًا عن شهر كامل.

– جيّد... من دُفن اليوم أو يوم أمس؟

– اليوم دُفن ثلاثة أشخاص: امرأةٌ عجوزٌ تُدعى مريم المصري، ورجلٌ أربعينيٌّ اسمه أنور نجار، ورجلٌ عجوزٌ واقعٌ في غيبوبةٍ منذ شهرين اسمه جريس أروادي.

– هل تحفظ أماكن دفنهم؟

– نعم. المرأة والرجل الذي كان في غيبوبة دُفنا قريبًا من الباب الخلفي للمقبرة، لكن الرجل الأربعيني دُفن لجهة كنيسة المقبرة.

– أي في الغربية؟!

– نعم بالضبط.

– سنذهب إلى قبره إذًا.

لم يفهم عمر ما الذي يجول في ذهن الأب نقولا، لكنّه، لسببٍ لا يفهمه، كان يثق به ثقةً عمياء، ربّما لأن الكهنة هم الأهل الوحيدون الذين عرفهم، الأهل الوحيدون الذين اعتنوا به في الميتم حيث تربّى. فقد وُلدَ عمر من دون أهلٍ، لم يخبره أحد يومًا كيف وصل إلى هذا العالم، كلّ ما يعرفه هو أنّه بدأ الحياة التي يعيها في ديرٍ للراهبات، يعيش في شبه منزل مع خمسة أطفالٍ آخرين كلهم أكبر منه. اعتاد أن ينادي الرّاهبة كاترينا التي قامت بتربيته «ماما». وحين أنهى دراسته في المدرسة التابعة للكنيسة، لم يستطع أن يدخل الجامعة بسبب درجاته المتدنّية، ولم يكن بإمكان الدّير أن يتحمّل نفقاته بعد أن يبلغ

الثامنة عشرة من دون أن يكون في الجامعة. بقي سنتين يتنقل من عملٍ إلى آخر إلى أن طلبوا منه مساعدة أبو سامي في حراسة المقبرة والاعتناء بهِ مقابل راتبٍ لا بأس به. وبعد ثلاث سنوات رحل أبو سامي وظلّ هو وحيدًا. وكما حصل لأبو سامي، هو يعلم أنّ اليوم الذي يحضرون له شابًا يساعده في المقبرة، يعني اقتراب موته هو الآخر.

وصلا قرب القبر، وقفا أمامه بصمتٍ لا يعرفان ماذا يفعلان بعد ذلك.

– هل لديك مصباح ما هنا؟

– نعم، انتظرني دقيقة.

ذهب عمر وترك الأب نقولا وحده واقفًا أمام القبر، اقترب هذا الأخير من القبر وأخذ يهمس: «هل من أحدٍ هنا؟ أتسمعني؟».

لم يجب أحد، فقد كان أنور فاقدًا الوعي، ولم يعد يسمع أو يرى أو يشعر بأيّ شيءٍ. فقد وعيه وترك حياته بين يدي القدر وترتيبه. وفي الوقت نفسه، لم يكن الأب نقولا يرغب في أن يردّ أحد عليه، فهو لا يعلم إن كان سيتمكّن من تحمّل الأمر. كلّ ما كان يتمنّاه هو أن يكون الصّوت الذي سمعه عمر مجرّد وهمٍ بسبب قضائه الكثير من الوقت في المقبرة، فيقوم بتوبيخه بسبب إثارة الرّعب وتسبّبه بتدنيس حرمة القبر - الذي كان ينوي فتحه - ومن ثمّ يطلب منه قضاء الوقت مع بعض الأصدقاء والالتقاء بناسٍ أحياء أكثر كي لا يخرف مبكرًا في هذا المكان الكئيب.

عاد عمر وبيده مصباح كبير يعمل على البطاريات، ناوله للأب نقولا. أخذه الأب وأضاءه ثمّ وضعه على الأرض موجّهًا نوره نحو القبر. أشار إلى عمر بأن يقترب معه من القبر. وضع يده على الممسك المعدني لغطاء القبر وبدأ برفعه. حين ارتفع قليلًا، أمسك عمر بحافة

الغطاء التي ظهرت، ورفعه هو الآخر ووضعاه جانبًا، ثمّ أزالا الغطاء الآخر بسهولة بعد أن بان أحد أطرافه.

أحضر الأب نقولا المصباح ووجّهه إلى داخل القبر. لم تسر الأحداث كما كان يتمنّى.

رأيا رجلًا يرتدي بزّة ثمنها يطعم إنسانًا لشهر كامل، واقعًا على الأرض، غطاء التابوت ملقًى بجانبه وقد تكسّرت بعض حوافه. بقيَ الاثنان صامتين لا يستطيعان تحمّل الصدمة، لا يعرفان ماذا يفعلان أو ماذا يفهمان أساسًا؛ قبرٌ مفتوح يظهر منه رجلٌ خارج من تابوته، وكان أحدهما قد سمع صوتَ صراخ منذ أقلّ من ساعة.

بدأ عمر يحلم بالقداسة، بدأ يفكّر في من سيكتب سيرة هذا القدّيس ويذكره فيها، نعم... كان هذا ما يحلم به عمر، أن يُذكر اسمه في سيرة قديسٍ، ذلك يكفيه. فهو لا يستطيع أن يكونَ قدّيسًا، هل سمع أحدٌ من قبل بقدّيس يحرس مقبرة؟

– ماذا نفعل الآن أبونا؟

– لا أعرف، أنا... لا أعرف.

– لكنّه صرخ وهو ميت، قد يكون قدّيسًا يريدنا أن نعلم بوجوده.

– تمهّل يا عمر، لا تكن متعجّلًا.

– هل نعيده إلى تابوته؟

– انتظر قليلًا! أمسك المصباح وأضئ لي.

خلع الأب نقولا ثوبه وبقي مرتديًا بنطالًا أسود وقميصًا داخليًا. نزل إلى أسفل القبر. بدأ حينها عمر بالارتجاف. أراد أن يعلم إن كان هذا الرّجل قديسًا.

أمّا الأب نقولا، فلم يكن معنيًا بأمور القداسة بتاتًا. راح يتذكّر ما تعلّمه في كلية الطّب التي لم يقضِ فيها سوى سنتين، لكن من دون

جدوى. لم يذكر أي شيءٍ يجعل الميت يصرخ، وخطر له ألّا يكون ميتًا من الأساس، أن يكون هناك من دبّر له تمثيلية الموت، أو حتّى ألّا يكون قد وُضع كما يوضَع الأموات، بل أن يكون أحدهم قد رمى به هنا. لكن البزّة التي يرتديها لا توحي بذلك تمامًا، فمن المستحيل أن يكون قد ارتداها في هذا الحرّ بملء إرادته. لمس معصمه، وبعد لحظةٍ من الصّمت، نظر إلى عمر وقال: «اِنزل إلى هنا وساعدني في إخراجه».

ارتعب عمر من فكرة إخراج ميت من القبر، وفكّر بالعواقب إن قام هو - حارس المقبرة - بإخراج ميت من قبره. ثمّ قرّر أن يستسلم لقرار الأب نقولا، ففي النّهاية، هوَ الكاهن وهو من سيتحمّل العواقب، لا حارس مقبرة اعتاد طاعة الكهنة.

– أليس من المشين أن نخرج الموتى من قبورهم؟

– الموتى نعم! ولكن هذا الرجل ما زال حيًّا وقلبه ينبض. نبضه بطيءٌ جدًّا، وهذا ليس مؤشّرًا حسنًا.

حملاه إلى سيّارة الأب نقولا، وبعد أن بدأت السيّارة بالمسير، اتّجه الكاهن بعيدًا عن مجمّع العباسيّين الطبّي القريب من المقبرة. لم يفهم عمر إلى أي مستشفى ينوي الأب نقولا أخذه، لكنه قرّر أن يبقى صامتًا، فقد اقتنع بعد جوابه عن آخر أسئلته أنه لا يفعل إلا الصّواب.

وصلا إلى أمام بناءٍ في مدينة جرمانا. ترجّل الأب نقولا من السيارة.

«اِبقَ قليلًا وسأعود في الحال. أبقِ عينيكَ على الرجل.»

صعد مسرعًا على درج البناء، ووقف أمام باب منزل الدكتور نزار، رنّ الجرس رنّة واحدة. لم يفتح له أحد. أخرج هاتفه الجوّال واتّصل به.

رنّ الهاتف طويلًا وردّ الطبيب أخيرًا:

– ألو!

– الله معك دكتور نزار.

– أهلًا أبونا، الله معك.

– ميت عاد إلى الحياة. هل الأمر ممكن؟

– نعم ولكنّها حالة نادرة، هل اتصلتَ بي في هذا...

– اِفتح لي الباب إذًا.

– ماذا؟ أنتَ هنا؟

– افتح الباب لا وقت لديّ.

– حسنًا، حسنًا.

فتح الباب فلم يرَ الأب نقولا، إنما لمحه ينزل على الدرج. بقي واقفًا أمام باب منزله منتظرًا عودته.

بعد قليل ظهر ومعه عمر حارس المقبرة - الذي يعرفه جيدًا من زياراته المتواصلة لقبر أبيه - يحملان رجلًا فاقدًا الوعي مرتديًا بزّة من ماركة «أزارو» سوداء اللون مع ربطة عنقٍ حمراء ورمادية.

أدخلاه على عجل، طلب منهما أن يضعاه في العيادة التي هي غرفة داخل بيته، حاله كحال معظم أطبّاء البلد. تركاه مستلقيًا على سرير المعاينة وأفسحا الطريق للطبيب نزار لينقذه.

لم يقم بشيءٍ غريب أو غير اعتيادي: جسّ النبض، التأكّد من أنه يتنفّس، فتح عينيه وتسليط ضوء عليهما. شعر بأن فقدانه الوعي جاء من بعد إرهاق لجسده كاملًا. لم يستطع تشخيص شيءٍ محدّدٍ سوى فقدانٍ للوعي ناجم عن ضيق تنفّس أو صدمة أو ربّما ارتطام رأسه بشيءٍ صلب.

– ما الأمر؟ ما الذي حصل لهذا الرجل؟

– وجدناه في قبر، خرج من تابوته وكان يصرخ. حين وصلتُ إليه كان فاقدًا الوعي، الأمر بيدكَ.

– وماذا كان يفعل في التابوت وفي القبر؟

– ما يفعله الجميع في القبور، كان ميتًا أو... هذا الاحتمال الأوضح إلى الآن.

صُدم الطبيب بما قاله الأب نقولا. كان قد سمع بحالات مشابهة، ولكنه لم يتيقّن من إحداها يومًا، كلّ ما يعرفه هو أن الميت حين يعود للحياة - كما يفضّل النّاس تسمية هذه الحالة - لا يكون في حالة صحّية سيئة.

تذكّر شيئًا مشابهًا قرأه على الإنترنت عن حالة مشابهة رُصدت في ألمانيا، قرأه حينها من باب الاطّلاع لا أكثر، فقد كانت بالنّسبة إليه حالة طريفة أو نادرة أكثر منها حالة يواجهها أمامه ويقوم بالاعتناء بمريض أصيب بها. في الأصل، لم يتوقّع أن يكون هناك أحدٌ أصيب بها ولم يتابع موته في قبرِه.

ذهب إلى خزانة أدويته وقام بحقنه بجرعة من دواءٍ ما، لم يكن سوى مميّع للدم أعطاه إياه تحرّزًا من ضعف نبضه ليجنّبه نوبة قلبية وليساعده على استرجاع وعيه قريبًا، ثمّ ذهب جانبًا ليشرح للأب نقولا: «بصراحة، أنا لا أعرف الكثير عن هذه الحالات، مرّت معي مرة واحدة أثناء دراستي، وسمعتُ عنها القليل. أخبار يتناقلها البعض على الإنترنت أو في روايات وأفلام، ولكن لم يخطر لي يومًا أن أتيقّن من صحتها. المهم أن حالته الآن لا علاقة مباشرة لها بكونه كان ميتًا أو بالأحرى يبدو ميتًا، ولكنّه غائب عن الوعي - كما أعتقد

- بسبب الرّطوبة ونقص الهواء في القبر والتابوت. أو ربّما حين نهض ارتطم رأسه بشيءٍ ما وفقد الوعي على أثره، كذلك إنّ الثّلاجة - ولا بد - سبّبت له بعض الأضرار».

«هل سيستيقظ؟»، سأله عُمر بلهفة.

– نعم، سيستيقظ قريبًا؛ خمس إلى سبع ساعات تقريبًا، ويبدو أنه قد استيقظ قبلًا، في القبر كما تقولون لي. ما سأقوله الآن ليس بصفتي طبيبًا، ولكنه سيكون بحالة نفسية سيئة حين يستردّ وعيه، وخصوصًا إن استطاع تذكّر وجوده في القبر. لذلك، أفضّل أن تبدأوا بالتّفكير بطريقة ما لشرح الأمر له بسهولة.

نظر عُمر والأب نقولا أحدهما إلى الآخر بحيرة، لا يعلمان ماذا عليهما أن يفعلا. لم تكن الخيارات واضحة أمامهما، ولم تنتهِ مهمّتهما بإنقاذه كما توقّعا. ما من أمرٍ قد يجعلهما يتحضّران ليخبرا إنسانًا أنّه كان ميتًا، ولكن بعد قليل لمعت فكرة في رأس الأب نقولا.

«بإمكاننا أن نأخذه إلى مستشفى ليستيقظ ويجد نفسه في مكان للعناية الطبّية، وإن تذكّر أوقاته في القبر، فسنقول له إن ذلك ليس سوى أثرٍ من آثار التّخدير، ولا شيء ممّا يتذكره قد حصل فعلًا. لِمَ لا تأخذه أنت أيها الطبيب إلى المستشفى الذي تعمل فيه حتّى تكون بجانبه حين يستيقظ؟ فليس من الطبيعي أن يستيقظ في المستشفى ويجد بجانبه كاهنًا أو... حارس قبور.»

– لكن أبونا... المشفى حيث أعمل هو أحد أبهظ مشافي دمشق.

– لا تخف، فهو رجل غنيّ على ما يبدو من بزّته، ويستطيع تحمّل مصاريفه.

– صحيح، لكنه كان في القبر، وكما يقال: «ما حدا بياخد معو شي عالقبر».

– لا تكن جشعًا يا نزار!

– ليس جَشَعًا، ولكنّي أعمل في المستشفى ولا أملكه.

– حسنًا حسنًا، سأدفع التّكاليف بنفسي.

صُدم نزار من أن يملك كاهنٌ لم يُعرف له من عملٍ سوى الكهنوت أجرة المكوث في مستشفى كالتي يعمل فيها، ولكنّه لطالما شكّ في أن التّبرعات التي يجمعها الطفلان يوم الأحد لا تذهب إلى الفقراء من دون أن يدفع «البعض» منها ضريبةً للكهنة.

كان عمر والأب نقولا على وشك حمل أنور، إلا أن الطبيب قاطعهما: «انتظرا! لا تحملاه هكذا». ناداهما ليتوقفا عن حمله من دون نقالة، «لديّ نقالة تسهّل حمله وتضمن سلامته».

وضعاه على الحمّالة ونقلاه في سيارة الطبيب الواسعة من الخلف، وحين وصلوا إلى المستشفى جروا به إلى الداخل من الباب العادي من دون أن يقتربوا من باب الإسعاف. ذهب الطبيب إلى عاملة الاستقبال طالبًا منها سريرًا.

عاد بعد دقائق إلى الأب نقولا وعمر. قال لهما إنه استطاع إقناع عاملة الاستقبال بأن أنور رجلٌ مرتاب يذهب إلى الأطباء لمجرّد الشعور بالمرض، لذلك قام بتخديره ويريد إدخاله إلى المستشفى كي يتخلّص من إلحاحه الدائم على إجراء الفحوصات والتحاليل وتفسير كلّ عارضٍ صغير يظهر عنده على أنه سرطان في دم (لوكيميا) أو سكّري، أو حتّى نوبة قلبية، وأخبرهما أن المستشفى لا تمانع استقبال حالات مماثلة ما دام المريض سيدفع الفاتورة.

جاءت ممرّضتان تجرّان سريرًا مدولبًا. نقلتا عليه أنور إلى غرفة فيها سرير واحد، وضعتاه عليه. ومن ثمّ أخبرهما نزار أن تقوما باستدعائه حال استيقاظ المريض.

ذهب نزار إلى الأب نقولا وعمر، وطلب منهما الذهاب، لكن في ما بعد تذكّروا أن الأب نقولا ترك سيّارته أمام منزل نزار، صعدوا معاً، أوصلا عمر إلى المقبرة ثمّ تابعا طريقهما إلى جرمانا.

– ماذ ستقول له غدًا؟

– سأقول له إنّه مرّ بأزمة قلبية، وإنّ عائلته غادرت المستشفى بطلبٍ مني بسبب الضجيج الذي أحدثه أفرادها.

– تأكّد من ألّا يلاحظ شيئًا، وأنا سأفكّر في طريقة لإخباره، أو سأجد الشّخص المناسب لإخباره.

– أنا أرى ألّا تأتي إليه، سأقول له حين نخرجه أن هناك سيّارة أرسلتها عائلته لتوصله وتكون أنت فيها وتشرح له، أو أيًّا كان من سيشرح.

– حسنًا.

«فكرة النّاس عن الآخرة ملخّصها أن كلّ الأرواح تذهب إلى العالم السّفلي أو مملكة الأموات ولا تعود إلى الأرض ولا يوجد حساب. فالقدر المظلم يخيّم على الجميع، الطيّبين والسيّئين. غير أنّ الذين لهم أولاد ويقدّمون أضاحي عنهم يكونون في وضعية أفضل. وهكذا لا تقدّم الآخرة شيئًا للإنسان. لذلك فإن تقوى الناس تقوى دنيوية محضة، هدفها كسب رضا الآلهة في الحياة الدنيا كي لا تصيبه بمكروه.»

د. فيصل عبد الله ود. عيد مرعي
مدخل إلى تاريخ الحضارة

الأربعاء 14 تشرين الأوّل 2009

ذهب الطبيب نزار إلى عمله كالمعتاد. وحين وصل، قصد فورًا غرفة أنور فوجده لا يزال غائبًا عن الوعي. ثمّ أتت إليه ندى، إحدى الممرّضات.

– دكتور نزار، لحظة لو سمحت!

– نعم ندى، ما الأمر؟

– هذا المريض دخل المستشفى عن طريقك، صحيح؟

– نعم! هل هناك مشكلة؟

– لا، ولكنّي بحاجة إلى اسمه لأقوم بتسجيل دخوله.

– حسنًا، سآتيكِ باسمه بعد قليل.

– ألا تعرف اسم مريضك؟

– ندى! قلتُ سآتيكِ باسمه بعد قليل.

قال تلك العبارة منهيًا الحديث. بعد أن ذهبت ندى اتّصل بالأب نقولا ليعرف اسمه منه:

– الله معكَ أبونا.

– الله معك دكتور، هل حصل شيءٌ له؟ هل استيقظ؟

– لا ليس بعد، ولكني بحاجة إلى اسمه لأقوم بتسجيل دخوله إلى المستشفى.

– حسنًا، اسمه أنور الياس نجار، ولكن لا اعرف اسم أمه إن كنتَ بحاجة إليه.

– لا بأس سأتدبّر الأمر.

ذهب إلى المكتب الذي تمكث فيه ندى. قال لها أن تبدأ بكتابة اسمه، وجّهت نظرها إلى الشاشة ووضعت أصابعها على لوحة المفاتيح.

«أنور نجار... واسم الأب الياس، واسم الأم لا أعرفه، حين يستعيد وعيه نسأله.»

أمعنت النظر في الشّاشة ثمّ التفتت إلى الطبيب وقالت له: «ما من داعٍ إلى ذلك، فقد دخل إلى المستشفى مسبقًا، ولديّ جميع بياناته. كان قد أصيب بجرح عميق في قدمه واحتاج لعناية طبّية، وقد حصل عليها هنا، لديه تأمين صحي».

كان قد مرّ على دخوله السابق سنة ونصف سنة، وبالتالي عليها أن تتأكد من أن تأمينه الصّحي ما زال ساري المفعول.

رفعت السّماعة وبدأت اتّصالها. في تلك الأثناء اقترب نزار من الشاشة ليعرف المزيد عن هذا النّاهض من الأموات. اسم أمه نادين، مدخّن ولا يشرب الكحول باستمرار، فئة دمه +A...

أثناء قراءته وحديثها على الهاتف، بدأتْ يداه تتسلّلان إلى كتفي ندى، وحين أنهت مكالمتها، رفع شعرها واقترب منها طابعًا قبلة على عنقها، ثمّ خرج من المكتب.

خرج من مكتب ندى تراوده نشوة غريبة من تلك القبلة، كان في داخله يشعر بأن الخيانة لها طعم جميل. لم يعلم ما مصدر هذه الخيانة، بعد سنوات قضاها يتلقى تربية مسيحية صارمة، لكنه لم يكن بالفعل مهتمًا بمصدرها ما دامت تعجبه.

حتّى إنّ تلك الخيانة لم تكن سوى نـزوة لمرة واحـدة، نزوة قضياها في منزلها حين كان يقوم بتوصيلها في إحدى نوبات اللّباقة - والملل - التي تصيب الرّجال أحيانًا، ومنذ تلك المرّة وهي تتهرّب من ممارسة الجنس معه من جديد، وتكتفي بهذه التحرّشات اللّطيفة التي يتبادلانها كلّ يوم.

قاطعت تأمله ممرّضة أخرى تناديه من بداية الممرّ. التفت إليها، كانت صفاء تطلب منه أن يأتيها حالًا.

– ما الأمر؟

– لقد استيقظ المريض الذي أتيت به يوم أمس، ولكنّه لم ينهض إنما بقي مستلقيًا، فتح عينيه وظلّ في مكانه بلا أيّ حراكٍ يُذكَر. يبدو مذعورًا ولا أعلم السبب.

– لا بأس، سأذهب إليه، بإمكانك أن تتابعي عملكِ.

منذ لحظاتٍ استيقظ أنور، انتفض رأسه وكان كمن خرج لتوّه من الماء بعد أن حبس أنفاسه في داخله لساعات. ارتفع صدره بسرعة ولحق به رأسه متأخّرًا قليلًا. نظر حوله، رأى غرفة يملأها البياض. ظنّ أنّه وصل إلى النور الذي يتبعونه عادة، ولكن لا. كانت هناك ممرّضة أو طبيبة تقف قبالته وتكلّمه، لكن في تلك اللّحظات كان لا يتذكّر أي شيءٍ، ليس فقط عن اللّيلة الماضية، إنما عن كلّ شيءٍ. حتّى اللّغة لم تكن حاضرة في ذهنه. كان كلام الممرّضة بالنّسبة إليه مجرّد أصواتٍ تصدرها ولا يفهم ما الهدف منها.

أمسك رأسه بكلتا يديه، وبدأ يعصره محاولًا التّخلص من الضّجيج الذي كاد يصمّه، بينما ذاك المخلوق المزعج الذي يرتدي الأبيض ما زال أمامه يصدر الأصوات. اقتربت الممرّضة منه. وراحت الأصوات تصدر منها بسرعة أكبر. أحسّ بأنفاسها قريبة منه. فتح

عينيه فوجدها تنظر في عينيه وتقول شيئًا ما، ثمّ التفتت مذعورة وهرولت إلى خارج الغرفة.

بدأت الأصوات بالتّلاشي، وبدأتْ الذّكريات تعود إليه ببطءٍ. طبعًا، ذكرى اللّيلة الماضية عادت إليه قبل اللّغة ربّما. اختفى الصّوت نهائيًا، وعاد الهدوء إليه من جديد واستطاع أن يفتح عينيه وينظر حوله. استطاع أن يسمّي المكان الذي هو ماكثٌ فيه... مستشفى.

ركض الدكتور نزار مسرعًا إلى غرفة أنور. وحين أصبح قريبًا منها، تباطأت خطواته والتقط أنفاسه كي لا يبدو مرتبكًا. دخل الغرفة بهدوءٍ حاملًا مصنّفًا من الأوراق لا تمتّ إلى أنور بصِلة، ومحاولًا تصنّع دور الطبيب الذي باتت له أُلفة مع هذا المريض الذي قضى أيامًا - كما ينوي أن يقول - في العناية به.

– كيف حالك اليوم؟

أخذ يقيس نبضه ويفحصه ويقوم بما إلى ذلك من الأمور التي توحي بأنه فحصٌ اعتيادي، لكن أنور لم يكن يتفوّه بحرفٍ. بقيَ صامتًا يراقب الطبيب نزار بحذر، فهو لا يعلم حتّى الآن إن كان ما زال حيًّا أو أنه ميت.

– أعتذر، لم أعرّفك بنفسي، أنا الدكتور نزار فارس، كنتُ المسؤول عن حالتك منذ البداية...

– أين وجدتموني؟

سأل وهو متأكّدٌ أنّه كان في قبر، وأنه كان في تابوت. تلمّس معصمه فوجد السّاعة في مكانها، ونظر حوله فلم يجد بزّته. أما نزار، فقد عرف في تلك اللّحظة أنه ما زال يتذكّر وجوده في قبر. وشعر بغباءٍ كبير - حين رآها على معصمه - لأن الممرّضات لم يقمن بنزعها...

منذ متى والمرضى يحتفظون بساعاتهم أثناء وجودهم في المستشفى لحالة خطرة؟

– لم نجدك، عائلتك أسعفتكَ إلى هنا إثر نوبة قلبية. أنتَ في ضيافتنا منذ ثلاثة أيام، وهذه هي المرة الأولى التي تستعيد وعيكَ فيها.

– أين هم الآن؟ أين عائلتي؟

– لقد ذهبوا. أنا طلبتُ منهم ذلك؛ فقد أثاروا الكثير من الضّجيج الذي أزعج إدارة المستشفى.

لم يعلم نزار إن كانت تلك الحجّة تبدو منطقية، ولكنّها أوّل ما خطر له، فقد كانت إدارة المستشفى صارمة جدًّا تجاه راحة المرضى، ولم يكن مدير المستشفى يتوانى عن طرد أي أسرة تثير الضجيج ويطلب منها عدم الرجوع حتّى يُخرَج مريضها.

أما أنور، فكان يخاف أن يسأل أو حتّى أن يذكر القبر، كي لا يجعل من نفسه أضحوكة... ولكنه متأكّدٌ، الصّورة واضحة له، يتذكّر كلّ التفاصيل حتّى اللّحظة التي صرخ فيها، تلك الصّرخة التي لا يتذكّر شيئًا بعدها. أمرٌ كهذا لا يجوز أن يكون كابوسًا، فهو أبشع من أن يكون حلمًا. الجدران الرّطبة، التابوت المُحكم الإغلاق، البزّة الشّتوية في هذا الجوّ المعتدل، الظّلام المطلق الذي لم يجرّبْه إنسان من قبل... كلّ تلك الأمور لا بد أنها حقيقة، لا يحق لها أن تدبّ الذّعر فيه بهذا الشكل ولا تكون حقيقة.

تجرّأ في النهاية وسأله: «ألم أكن في قبرٍ... أو تابوت؟ ألم أكن ميتًا أو اعتقدوا أنّني ميت أو...»

– لا تكمل، هذه ولا بدّ بعض الهلوسات التي تراود المريض المخدَّر، فقد اضطررنا إلى تخديرك عدة مرّات.

– ولكني أتذكّر ذلك بوضوح. لقد كنتُ في تابوت و...

– لا شيء من ذلك صحيح أستاذ الياس...

– أنور، اسمي أنور، الياس هو والدي.

– عفوًا، ذلك الحلم قد راودك، ربّما حين كنّا نجري لكَ صورة «طبقي محوري»، فقد كنت في مكان ضيّق حينها، ربّما انعكس ذلك على أحلامكَ.

– ألم تقل إنني أُصبتُ بنوبة قلبية؟ ما حاجتي للطّبقي المحوري؟

– صحيح، ولكن كنا قلقين من أن تكون قد أصبتَ بكسور إثر السّقوط العنيف الذي سقطته، ولا بد أنك تذكر ذلك.

كلّ ما يقوله الطبيب يبدو متماسكًا، فهو متأكدٌ أن أسرته ستُطرَد من المستشفى. في المرة الماضية حين جُرحَت قدمه في المسبح وأتى إلى هذا المستشفى، كانت زوجته وابنته الكبرى تصرخان مع كلّ قطبةٍ يغرزها الطبيب في قدمه. وعلى الرّغم من ذلك، لا يبدو له وجوده في مكان ضيّق كافيًا ليحلم بما يقول الطبيب إنّه حلم به، فالقبر لم يكن ضيّقًا، كان غرفة بعد أن خرج من التابوت، وكابوسه الحقيقي كان قد بدأ بخروجه من التابوت.

– متى سأخرج من هنا؟

– حين تستقرّ حالتكَ ونتأكّد من أنّك لن تتعرّض لنوبات أخرى قريبة.

– ومتى سيحصل ذلك؟ عليّ أن أتابع عملي.

– ما هو عملك؟ لم يتسنّ لي أن أعرف.

– تاجر، أعمل في تجارة العقارات.

– جميل! اليوم مساءً أو صباح الغد ربّما.

- حسنًا، ذلك جيد.

خرج نزار من غرفة أنور بعد أن تأكّد من أنّ هذا الأخير تخلّى عن فكرة أنّه مات ثمّ عاد إلى الحياة.

في تلك الأثناء، نظر أنور إلى ساعته التي تضيء، وتأكّد من التّاريخ. كان الرابع عشر من تشرين الأوّل، أي إنه بعد يومين من ذكرى زواجه التي كان يحتفل بها مع أصدقاء عائلته، في الثّاني عشر من تشرين الأوّل. من الممكن أن تُحسَب على أنّها ثلاثة أيام.

على الرّغم من كلّ ما قاله الطبيب، إلا أن شيئًا ما يبدو خاطئًا. صورة السواد الحالك ما زالت محفورة في ذهنه. تلمّس يده اليمنى فوجدها مخدوشة عند المعصم. تذكّر ذلك الجرح، كان قد حصل عليه حين فتح غطاء التابوت.

اختلطت الأمور عليه، شيءٌ ما قد حصل بالتّأكيد. هذا الجرح الذي على معصمه لا يمكن أن يسبّبه حلمٌ. ربّما كان الطبيب يكذب، وربّما من أتى به إلى المستشفى هو من يكذب. ربّما عليه أن يظلّ هادئًا لحين خروجه من المستشفى حتّى يفهم كلّ شيءٍ بنفسه، من دون هذا الطبيب الذي يسدّ عليه كلّ الطرقات... لو أخبره عن الجرح لاخترع مئة سببٍ له.

لم يعد يفهم شيئًا، لم يعد يريد أن يفهم شيئًا. أرجع رأسه إلى الخلف، وغطّ في نوم عميق. تمنّى لو يستيقظ ويجد كلّ شيءٍ من حوله في مكانه الطبيعي، كلّ شيءٍ كما كان. تمنّى لو يكون وجوده في القبر ووجوده في المستشفى مجرّد حلمٍ مزعج، لو يكون ذلك كله كابوسًا طويلًا ينتهي عند استيقاظه.

اتّصل نزار بالأب نقولا في الحال، وسأله عمّا يجب عليه أن يقوم به. لكن الأب نقولا لم يكن قد وجد بعد الشخص المناسب ليشرح

القصة لأنور. في النهاية، قرّرا أن يُبقيا أنور في المستشفى ليوم ثانٍ، وبالطبع لم يكن اتخاذ هذا القرار صعبًا بعد أن علما أن شركة التّأمين ستتولى أمر الفاتورة.

عند الساعة الخامسة، استيقظ أنور من جديد وهرعت الممرّضات لاستدعاء الطبيب نزار الذي حضر في الحال.

– أريد هاتفًا! عليّ أن أجري اتصالات مهمّة، أين هاتفي؟

– هاتفك مع عائلتكَ، ولا يمكنني أن أحضر لكَ هاتفًا آخر، فاستعمال الهواتف الخلوية محظورٌ هنا.

– أليس بإمكاني أن أخرج من المستشفى لبعض الوقت لأجري بضع مكالمات وأعود؟

– لا بالطبع، وصحتك الآن أهم من كلّ الأعمال. انتظر حتّى تخرج وتكلّم على الهاتف كما تشاء.

لم يكن يريد الاتصال بأحدٍ من أجل العمل، كان ينوي أن يتّصل بمنزله أو بمكتبه، وأن يطلب السيد «أنور نجار». كان يريد أن يطلب نفسه ليسمع الجواب ويعلم ما هي حجة غيابه. كان سيسمع جملة من اثنتين: إما «عذرًا ولكنه في المستشفى منذ عدة أيام؛ إذ إنه يعاني أزمة صحية»، أو «أنور قد توفّي... ألم تعلم بذلك؟ لقد مرّت على وفاته عدة أيام».

بقي مستيقظًا هذه المرة. ربّما فقد الأمل من أن ينام ويستيقظ وتختفي كلّ الكوابيس بعد ذلك.

إنها الساعة الثالثة صباحًا، وما زال مستيقظًا، يقلّب ملايين الاحتمالات في ذهنه، ينظر من برهة لأخرى إلى معصمه المجروح. قرّر ألا يسأل الطبيب عن هذا الجرح؛ فإنه ولا بد سيعطيه أجوبة أخرى

تبدو مقنعة، أجوبة لا يمكنه التحقق من صحتها لجهله كلّ شيءٍ عن الطب وعن جسم الإنسان، فهو بالكاد يتذكر من دروس العلوم الدورة الدموية الصغرى والكبرى والفرق بينهما.

راودته رغبة غريبة بالبكاء. أراد أن يبكي بكاءً مرًّا. أراد أن يخرج كلّ الخوف وكل الحزن الذي في داخله الآن، رغم أنه لم يعلم من الذي فعل به ذلك، ولكنه شعر بالظلم، شعر بأنه تعرّض لأمرٍ لا يستحقه. حتّى في الموت، لم يستطع أن يموت بسلام، لم يستطع أن يدفن ويرقد في قبره كما يفعل كلّ الموتى. حتّى تلك الراحة الأبدية أتته على شكل أزمة تؤرقه. أصعب ما في موته كان أنه عاد إلى الحياة، أدرك حينها أن الموت والحياة أمران كلّ منهما هو أصعب ما في الآخر...

أوّل ما خطر له كان أن كلّ شيءٍ في الحياة سخيف أمام الحياة نفسها. كلّ الأموال والمنازل التي كان يملكها، كلّ الأمور التي اعتاد القيام بها، من أبسطها وحتى أكثرها جموحًا وإثارة، حتّى الوقت الذي كان يقضيه مع أغلى فتاتين في حياته كلّها، بدا سخيفًا، كله كان تافهًا ليس ذا قيمة إذا ما قورن بإحساسه بنفسه حيًّا، إذا ما قورن بسماع صوت تنفسه وتأكده أنه حيّ.

بدا له حينها أنّ من السهل جدًّا التضحية بكل شيءٍ، كلّ شيء، مقابل أن يعلم فقط أنه على قيد الحياة. كان على استعدادٍ لأن يعيش في زنزانة لا ينفذ إليها الضوء، ألّا يرى أحدًا ولا يكلم أحدًا، وأن يأكل الطعام نفسه كلّ يوم، ويتبوّل في الزواية التي يقضي وقته فيها، مقابل أن يكون حيًّا. حتّى إنه كان على استعدادٍ لأن يعود ليقضي وقته في التابوت ما دام متأكدًا أنّه يتنفّس، وأنّ ما من شيءٍ يؤكّد أنه سيموت قريبًا.

فهم شعور من يحكمون بالسجن المؤبد. كان قبل تلك الزيارة غير اللطيفة يقول إنهم، ولا بد، يفضّلون الموت على البقاء في السجن لجميع سنوات عمرهم الباقية. لكنه الآن يعلم أن السجن، بل والأعمال الشاقة المؤبدة، أفضل بمليون مرة من الموت، أو بالضبط أفضل من اللحظة القصيرة التي تسبق الموت.

لا يريد للحياة أن تنتهي، هي أفضل من الموت. حتّى ولو كانت حياة بلا حياة، لا شيء فيها ولا شيء سيطرأ عليها، تظلّ جميلة جدًّا. أبشع ما في الموت أنه نهاية الحياة. أيًّا كان الأمر الذي سيحصل بعده يبقى بشعًا، مقرفًا، مقززًا، مخيفًا. فأيًّا كان، يبقى الموت نهاية الحياة، يبقى صافرة النهاية لكل الأمور التي كان يحياها المرء. حين تأتي اللحظة التي تسبق الموت بقليل يعلم الشخص أنه قد أكل منذ قليل وجبته الأخيرة، وشرب كأس الماء الأخيرة، وأنه منذ يومين أو ربّما منذ عشر سنوات قال لحبيبته: «أحبكِ» للمرّة الأخيرة، سار خطوته الأخيرة ونام للمرّة الأخيرة، وتبوّل وتغوّط واستحمّ ومارس الحبّ وحلق ذقنه وغيّر ملابسه وغضب وحزن وفرح ورقص وبكى... للمرّة الأخيرة.

انقلب الشعور فجأة، لم تعد التفاصيل في حياته سخيفة وتافهة والتّضحية سهلة كما فكّر منذ لحظاتٍ. بل فجأة، أصبحت أسخف التّفاصيل مهمّة. قرّر أنه بعد أن يعود إلى حياته سيشعر بالمتعة المطلقة حين يقصّ أظفاره، وحين يعقد رباط حذائه. بل إنه سيكون ممتنًّا في كلّ مرة يتمكّن من حكّ أنفه.

حين يرى بيسان وبانة من جديد سيتأمّلهما لساعاتٍ كلّ يوم، سيبقى معهما لكثير من الوقت وسيعلم كلّ تفصيلٍ في حياتهما. سيتركهما تفعلان ما تشاءان ويطلق لهما العنان لتستمتعا بالحياة.

سيخبرهما كم أن كلّ تفصيل في الحياة مهمّ وجميل، وكم أن كلّ شيءٍ هو ذو قيمة لا تُقدَّر بثمن.

الموت هو أسوأ ما في الحياة، ولكن من ناحية أخرى - هو وحده يفهمها ربّما - الحياة بعد المرور بالموت أسوأ، فهو يعلم أنه سيقضي بقيّتها وفكرة الموت تلاحقه، وخصوصًا أنها أصبحت بالنسبة إليه واقعًا وأكثر من مجرّد هاجس مخيف.

بذل جهدًا عظيمًا للقيام بأمرٍ لم يعتد القيام به. اعتصر نفسه حتّى نزلتْ منه دمعةٌ، دمعة جعلته مُنهَك القوى، ذرفها وأمال رأسه وأغمض عينيه على دمعة واحدة استقرّت في عينه اليمنى. أخيرًا، غطّ في نوم عميق. لم يعد يفكّر، هو نائمٌ وحسب، تاركًا للوقت مهمة منحه الأجوبة، ولن يعتمد بعد الآن على ذاكرته ولا على الطبيب صاحب الأجوبة المنطقية في الظاهر.

الخميس 15 تشرين الأوّل 2009

فتح عينيه فوجد الظلام حالكًا من جديد. راوده خوفٌ عظيم. تلمّس جسده فوجد أنه يرتدي ملابس المستشفى. لكنّ الظلام لم يكن منطقيًا بالنسبة إلى مستشفى خاص كهذا الذي يمكث فيه الآن. ولم يكن منطقيًا بالنسبة إلى الظلام حتّى. كان يرى ظلامًا، ورغم ذلك استطاع أن يرى كلّ شيءٍ بوضوح: تابوت يحيط به، بطانة قطنية، ساعته، صليبه الذهبي، كلّ شيءٍ كان واضحًا داخل التابوت.

عاد إلى التابوت من جديد... هل يعقل أنه سيضطر إلى أن يعيش هذا الكابوس المزعج مرة ثانية؟

كانت يداه تتحركان بحرية من جديد، ولكن بشكل أو بآخر كانتا تتلمّسان غطاء التابوت. حاول أن يفتحه، وهذه المرة لم يجد صعوبة في فتحه، إنما بعد أن فتحه شعر بجرح ينفتح بيده، في ذات المكان القديم على معصمه، كأن أحدًا قد جرحه. بدأ يشتبه في أن أحدًا قد اختطفه ويفعل ذلك به كي يتلاعب بعقله.

كان الجرح هذه المرّة عميقًا، ينزف بشدة، ولكنه كان ينزف كما لو أنه يشاهده على التلفاز. لا يشعر إلا بألمٍ بسيط، ولكن الدم يسيل بغزارة، كما لو أن دم جسده كله يريد الخروج منه، كما لو أن دمه لا يريد الموت معه.

على الرغم من الظلام، استطاع أن يرى شيئًا يتحرّك قريبًا منه. نهض وخرج من التابوت. اقترب. كان يسمع تنفّسًا وشيئًا يشبه البكاء. اقترب أكثر من مصدر الصوت، وحين صار قربه ميّزه أكثر. كان أنثويًا ويقول: «أنا أيضًا أريد الخروج!». ثمّ أمسكت يدٌ بثوبه.

صرخ صرخة أيقظته، استنشق نفسًا عميقًا وهو يسبّ ويلعن الكابوس السيّئ الذي رآه. كانت فكرة العودة إلى ذلك المكان ترعبه، مجرّد فكرة وجوده حقًّا فيه كانت سيئة جدًّا، أسوأ من أي شيءٍ كان قد مر به قبلًا.

دخل الطبيب عليه وكانت الساعة العاشرة صباحًا. قام بقياس ضغطه ونبضه وما إلى ذلك، ثمّ طمأنه على صحّته:

– أنت في أفضل حال ويمكنك أن تخرج اليوم.

– حقًّا؟ متى؟ الآن؟

– لا ليس فورًا، سآخذ عيّنة دم منك وأتأكّد من بعض الأمور وبعدها تخرج.

بالطبع كان الطبيب سيرمي عيّنة الدم في أول سلّة قمامة يصادفها، ولكنه احتاج أن يؤخّر خروج أنور قليلًا ريثما يأتي عمر ويقلّه.

– ماذا عن الفاتورة؟ أنا لا أعلم إن كانت النقود التي في بزّتي تكفي، ولا أحد من عائلتي هنا كي يدفع.

– لا تقلق من هذه الناحية، تأمينك الصحي يغطّي تكاليف مكوثك هنا.

عندها، اطمأنّ أنور قليلًا، فتأمينه الصحي، الذي كان رامي مسؤولًا عن متابعته، لن يكون فعالًا لو لم يكن حيًّا. كذلك إنّ الكابوس الذي راوده للتوّ جعله يفكّر بإمكانية أن يكون ما رآه بالفعل - على الرغم من الواقعية التي اتسم بها - حلمًا مزعجًا كما قال له نزار.

– ما الـذي تخطّط له الآن أبونا؟ لقد وعدته بأن يخرج من المستشفى خلال ساعات؟

– لا أدري، لم أقرّر بعد. سيكون عمر أمام المستشفى ليقلّه إلى منزلي.

– واضحٌ أنه ما من طريقة لديك لتخرج من هذا المأزق.

– لا عليك! حين ألتقيه سيرشدني الربّ إلى ما عليّ أن أقوم به.

– ماذا أقول له بشأن عمر؟ لماذا ليست أسرته هنا لتأخذه؟

– لا أدري... قل له إنه سائقٌ أرسلوه، أو قل له إنّكم لم تجدوا الوقت لتبلغوا أسرته، والمستشفى ودّ أن يتأكّد من وصوله إلى المنزل.

– حسنًا... سأجد شيئًا ما أقوله له.

دخلت ممرّضة إلى غرفة أنور. طلب منها أن تحضر له بزّته لأن عليه الخروج بعد قليل. أحضرتها له. بدأ بارتداء ملابسه. البنطال، والحذاء، ولمّا بدأ بارتداء القميص، لاحظ أمرًا غريبًا؛ لم يكن هناك أثرٌ لإبر على يديه، حتّى إبرة «السيروم» الذي يُفترَض أنه زُوِّد به أثناء فترة غيابه عن الوعي.

ارتدى بزّته التي كانت رائحتها رائعة. يبدو أن الممرّضات أو أحدًا ما قد قام بغسلها وكيّها قبل إحضارها له. سأل الممرّضة، فقالت له إن إدارة المستشفى تجبر جميع المقيمين فيه على أن يسمحوا بغسل ثيابهم خوفًا من إفساد تعقيم الغرف.

ولكن... هذه البزّة هي ذاتها التي كان يرتديها في ذلك المكان المظلم، ذاك المكان الذي يقول له الدكتور نزار إنه مجرّد هلوسات، ومن المستحيل أن يرتدي إنسانٌ بزّة كهذه في هذا الطّقس الدّافئ. على الأقلّ ليس وهو على قيد الحياة.

وضع يده في جيب السّترة فوجد سلسلة ذهبية. كان غريبًا أن تبقي أسرته على قطعة من ذهب كهذه في المستشفى، ويبدو أن الممرّضات وضعنها في سترة البزّة حين انتهين من تنظيفها. لكن كان هناك أمرٌ أغرب... الصليب اختفى من العقد، لماذا يختفي؟ لو كان سُرق، لكان السّارق أخذ العقد والصّليب معًا، لا الصليب فقط.

عندها، تذكر أمرًا تمنّى لو أنه لم يتذكّره قطّ... تذكّر حين ماتت عمّته. حينها، كانت في يدها - وهي في النّعش المفتوح - مسبحة صلاة. أبقوها في يدها قبل دفنها، ولكن نزعوا منها الصّليب، الأمر الذي شرحه له أهله بعد حينٍ بأنّه بسبب قدسية الصّليب وعدم جواز دفنه، حتّى إنهم ينزعون الصليب الذي يكون على غطاء التابوت.

عاد إليه التّوتّر ومعه ملايين الأسئلة. لكنه قرّر هذه المرّة أن يبقى هادئًا على الأقلّ لحين يتمكّن من الخروج من المستشفى، وبعد ذلك سيكون لديه متّسعٌ للبحث عن كلّ الأجوبة بنفسه.

كان على وشكِ الخروج من الغرفة حين دخل نزار إليها.

«يبدو أنّك على عجلة لتذهب! عليك أن تنتظر السيارة التي طلبها المستشفى لكَ لتقلّك، طبعًا لا يمكنك القيادة وأنت بهذا الوضع.»

وافق على الانتظار، ولكنّ الاستغراب والشّك تابعا التّسلّل إليه، فهو أساسًا لا يقود السيارة. رغم أنّه اشترى سيّارة لزوجته وابنتيه، إلا أنّه دائمًا يجعلها توصله أو يستقلّ سيّارة أجرة. لطالما كانت لديه فوبيا من السيارات والطّرقات، وغالبًا ما فضّل التّنقل سيرًا على الأقدام. وأيضًا، كان يُفترَض أن تأتي سلوى أو رامي لإخراجه من هنا. الأمر يزداد تعقيدًا. وبسبب عدم تمكّنه من الاتّصال بأحد، وجد نفسه وحيدًا عند خروجه من المستشفى، ولا يعلم ما الذي ينتظره. أضف إلى ذلك

كلّه أنّه قد تعامل لعدّة مرّاتٍ مع هذا المستشفى، ولم يعتد منه كلّ هذا «الدّلال» لمرضاه.

«لماذا لم يأتِ أحدٌ من أسرتي أو أصدقائي ليقلّني؟»

كان نزار متهيّئًا لهذا السؤال، وهو أصلًا تعمّد ألّا يقدّم له التبرير مباشرة كي لا يثير الشكوك لديه: «بصراحة، لم يكن مقرّرًا إخراجك اليوم، لذلك لم نجد الوقت لإبلاغهم، بل طلبنا لك سيّارة أجرة من مكتب خاص، وسنضيف هذه التوصيلة إلى أجور إقامتك».

كان عمر ينوي أن يقول له إنّه سائق من مكتب تأجير السيارات، وقد طلب منه القدوم وإيصاله إلى منزله. اتّصل بالطبيب نزار وقال له إنّه أمام باب المستشفى، وإنّ عليهم أن ينزلوا بسرعة لأنه يعطّل مدخل الإسعاف حيث يوقف السيّارة. عاد نزار إلى غرفة أنور الذي كان جالسًا على السرير منتظرًا الإشارة للخروج.

«وصلت السيارة، أستاذ أنور، عليك فقط أن توقّع بعض الأوراق قبل أن تخرج، وأرجو أن تزورني بعد أسبوع لأعاود التأكّد من أنّك على ما يرام.»

توجّها معًا إلى المصعد. وصلا إلى الطابق الأرضي. وحين أصبحا قرب موظّفة الاستقبال، أشار الطبيب نزار لأنور أن يوقّع الأوراق التي ستقدّمها. أخذ الأوراق وكان عليه أن يوقّع مرّتين أو ثلاثة.

وفيما كان يسلّم الأوراق للموظّفة، حصل ما لم يحسب له الأب نقولا وعمر ونزار حسابًا. قالت موظّفة الاستقبال كلماتٍ أعادت أنور عشرين خطوة إلى الخلف في مشواره الصعب، مشوار اليقين بأنه لم يمكث بين الأموات.

«أرجو أن تكون قد ارتحت بعد الفحوصات الطويلة التي أجريتها في هاتين الليلتين»، قالت ذلك وهي تتذكّر اسمه من ليلة

إحضاره إلى هنا، وكانت تلك مهمّتها؛ الاطمئنان على المرضى بشكل شخصي قبل الخروج، ليشعروا باهتمام المستشفى بهم فيعودوا إليه من جديد وينفقوا فيه أموالهم.

هو لم يأتِ ليُجري فحوصات طبّيةٍ، هو لم يأتِ أصلًا. كذلك فإنه، وفقًا لحديث الطبيب نزار، قضى ثلاث ليالٍ، لا ليلتين وحسب. ولكن هناك تفسير منطقي لكل هذا؛ كان نزار يكذب عليه، لذلك قرّر أن يضع صدقه تحت الاختبار.

«من أتى من عائلتي إلى المستشفى؟»

ارتبك نزار، لم يعلم بما يجيب، فهو لم يرَ أو يسمع بأحد من أسرته. قرّر أن يبحث عن الاحتمالات الأكثر منطقية في حالة أنور.

«والدتك وزوجتك وابنك الصغير.»

حينها أدرك أنور أن وجوده في القبر لم يكن كابوسًا، وأن الجرح الذي يزيّن معصمه ليس إلا أثرًا من تحطّم غطاء التابوت، أو على الأقل فإن سبب وجوده في المستشفى هو كذبة. رغب لو يرمي بنفسه على الأرض وينام كي تنهار كلّ الأمور السيئة من حوله. لكن ذلك لم يكن أسلوبه في مواجهة المشاكل. فقرر أن يُعمل لسانه الذي طالما كان سلاحه في أي مكان.

«مبدئيًا، ليس لديّ أبناءٌ ذكورٌ. لدي زوجة، وهذا الأمر صحيح. أما بالنسبة إلى أمي، فقد توفيت منذ ست عشرة سنة. من الممكن أن تكون زارتني في حالة واحدة، وهي أن تكون قد خرجت من القبر أو... لم تزرني والذي خرج من القبر هو أنا. ما زلت أتذكر كلّ شيءٍ، وأريد أن أعلم من فعل هذا بي.»

بقي نزار صامتًا، لم يجد شيئًا يجيبه به. بالفعل، كان كلّ كلام أنور صحيحًا، فقرّر أن يعترف ولكن بأقل خسائرٍ ممكنة.

«أرجوك... اِصعد في السيارة، وسأشرح لكَ في الطريق.»

حينها لاحظ أنور أن الجميع ينظرون إليهما، وبما أنه لم يكن يعرف بعد ما الذي حدث له بالضبط، لم يرد أن يزيد من حجم المسألة.

سار هو ونزار الذي خلع رداءه وناوله لندى وهو يخرج من دون تبرير أو شرح لسببِ خروجه. صعدا مع عمر، ولسببٍ ما لم يصعد أي منهما في المقعد الأمامي. بالطبع، أنور لم يفعل بسبب الفوبيا التي لديه من الطرقات.

لم يكن يفترض بالطريق أن تستغرق أكثر من عشر دقائق. لكن أنور كان يزعج عمر باستمرار بعبارة: «لا تسرع! تمهل!»، حتّى إنه لم يستطع أن يزيد سرعته على الأربعين كيلومترًا في الساعة.

– ألن تشرح لي الآن؟

– حين نصل، أفضّل ألا أكون وحدي في هذا.

– نصل إلى أين؟ هل يفترض بي أن أثق بكَ بعد الآن؟

– هل يفترض بكَ أن تثق بي؟ هذا الرجل الذي تواصل إزعاجه، وأنا الطبيب الذي تعامله كأنه سرق أعضاءك، والشخص الذي نتوجه إلى منزله الآن، نحن من حافظ عليكَ حيًا. لولانا لكانت جثتك قد بدأت بالتعفن الآن. لذلك أرجوك أن تتوقف عن التذمر من أزمة الثقة التي لديكَ، وأن تنتظر لبضع دقائق، اتفقنا؟

أدار نزار وجهه نحو النافذة غاضبًا، فيما كان أنور قد بدأ بالارتياح. كانت فكرة وجوده في القبر لا تزال ترعبه، ولكن ما جعله أقل توترًا هو الأمر الذي نبّهه إليه نزار؛ فهو ما زال حيًا وجثته لم تتعفن.

راوده ذاك الشعور مجددًا. المهم أنه على قيد الحياة، فليفعلوا به ما يشاؤون، يخطفونه، يحتالون عليه، يجرّدونه من كلّ أمواله وعقاراته، لا يهم... ما دام حيًا، فليأخذوا كلّ شيءٍ معهم، فهو منذ

اليوم يعلم أنّ لا قيمة لشيءٍ حين يقارن مع الحياة، ربّما عليه أن يصمت قليلًا ويستمتع بأنه على قيد الحياة. سواءٌ زار القبر أو لم يفعل. هو على قيد الحياة، لا يريد أن يعرف الحقيقة، فلتذهب الحقيقة وكل الحقائق إلى الجحيم، فهو على قيد الحياة.

وصلوا إلى منزل الأب نقولا، صعدوا معًا هم الثلاثة. حين دخلوا، تفاجأ الأب بقدوم نزار، وكانت وجوههم الممتعضة تكشف عن أمر قد طرأ على الخطة. شعر في الوقت نفسه بانتعاش، بنشوة لرؤية أنور يسير على قدميه، برؤية عينيه الجميلتين مفتوحتين، لا مغلقتين كما رآه في المرة الأخيرة، مغلقتين كالنيام أو الموتى.

– مرحبًا يا بنيّ.

– أهلًا! من أنت أيضًا؟ الكاهن الذي صلّى يوم دفني؟

– اهدأ يا بنيّ سأشرح لك كلّ شيء.

– توقف عن مناداتي بابنك، واضح أننا من العمر نفسه، وربّما أنا أكبر منك.

– اسمعني وتوقف عن مقاطعتي إن كنت ترغب في أن تعرف سبب زيارتك للقبر.

انتفض بدن أنور لسماع العبارة التي قالها الأب نقولا: «زيارتك للقبر». أخيرًا اعترف أحدٌ له بأنه كان في القبر، أخيرًا عرف أن هناك من يصدّقه. ساد الصمت للحظات، كانت أعصاب أنور على وشك الانهيار، فعبارة «زيارتك للقبر» - رغم ما منحته من اليقين - لم تكن بالفعل مريحة. جلس على الأريكة التي بقي واقفًا أمامها لدقائق. وكذلك فعل الأب نقولا ونزار وعمر الذي بالكاد كان أحدٌ ينتبه لوجوده.

«اسمعني، وصولك إلى القبر لم يكن ذنب أحدٍ، فموتك لو لم يكن مؤكدًا لما كانوا دفنوك. ومن المؤكد أن ما من أحد قلبه مظلم

لدرجة أن يقوم بإيصالك إلى القبر. الأمر الذي حصل هو أن الأخ عمر سمع صوت صراخك في مساء اليوم الذي دفنتَ فيه، اليوم الذي تذكره على ما يبدو. أتيتُ أنا بعد أن استدعاني، واستطعنا الوصول إلى القبر الذي وُضعتَ فيه وأخرجناك وأخذناك إلى الطبيب نزار. وأما مكوثك في المستشفى، فلم يكن إلا بهدف تهدئة روعكَ ريثما نجد أنه من المناسب أن نخبرك بما حصل. وها أنت الآن حيٌّ يرزق، ووجودك في القبر على الرغم من كونه ذكرى أليمة، أصبح الآن ذكرى. لذلك أرجوك أن تهدأ وأن تتوقف عن البحث عن مذنبٍ تعاقبه على ما حصل».

فاجأت نزار وعمر فصاحة لسان الأب نقولا، وقدرته على استخدام كلماتٍ دافئة تجعل المتحدث إليه يشعر بهدوءٍ يمكّنه من منح هذا الكاهن الصغير ثقته.

– ولكن كيف يعقل أن أموت وأحيا؟

– هذا ما حصل يا بنيّ، متّ وعدتَ لتحيا من جديد.

حينها قرر الطبيب نزار أن يتدخل ليدافع عن المعلومات الصحيحة، ويقدّم لأنور أولى الأخبار الصادقة منذ تعرّف أحدهما إلى الآخر.

«أنت عمليًا لم تمت»، قاطع نزارٌ الأبَ نقولا بقوله: «الحالة التي تعرّضت لها هي ما يسمى الموت الظاهري. هي حالة من الكمون تصيب الجسم، تنخفض أثناءها العلامات الحيوية إلى أشد الدرجات، وخصوصًا النبض والتنفس اللذين يُستدلّ من خلالهما بشكل أساسي على أنّ الشخص حيّ أو ميت. لذلك يصبح من المستحيل على الأطباء معرفة أنّ الميت ظاهريًا مازال حيًا».

أخيرًا، سمع أنور تفسيرًا منطقيًا لوجوده في القبر. أخيرًا، استطاع التخلص من صور المؤامرات والاختطاف التي كانت ترهقه. رغم أن المعلومات التي عرفها لم تكن بالفعل مريحة، فكرة أنه دفن لأن صوت قلبه لم يكن مرتفعًا كفاية ليسمعه الآخرون كانت فكرة غريبة، ولكنها - ككل الأجوبة التي قدمها نزار له حتّى الآن - منطقية بما فيه الكفاية ليكون على علمٍ بما حصل.

– ولكن، ألا يفترض أن يتأكدوا من وفاتي قبل وضعي في ذلك المكان المقزّز؟ أما من طريقة ليتأكدوا؟

– بلى! التخطيط الكهربائي كان سيُظهر نبضات ضعيفة جدًّا للقلب ما يجعل إنعاشك سهلًا إلى حدٍّ ما عن طريق الصدمة الكهربائية. لكن الحالة نادرة جدًّا، وليس من المعتاد أن تؤخذ في الاعتبار. آسف لذلك ولكن، في ما حصل لكَ، ليس هناك خطأ من جانب أي أحد. ليس هناك من يلام على الأسى الذي تعرّضتَ له.

وضع أنور يديه في جيبيه. لم يجد أية نقود، والأهم أنه لم يجد ما كان يبحث عنه؛ هاتفه. أخرج يديه ووضع رأسه بينهما، أخذ يفكّر في كل الأمور التي قالوها له. لم يكن من السهل عليه استيعاب كلّ تلك الأمور في وقتٍ واحد، ولكن الوقت الذي قضاه بين خروجه من القبر ومعرفته للتفسير الذي سمعه منذ دقائق ربّما ساعده على وضع أسوأ الاحتمالات في ذهنه. لذلك، لم تكن الحقيقة التي عرفها للتوّ هي أسوأ ما يمكن سماعه.

قال له عمر سعيدًا بحقيقة أنه أنقذ إنسانًا وصل إلى القبر من الموت: «الآن، ألا تودّ أن تعود إلى عائلتك وأولادك؟».

نظر أنور إلى عمر غير عارف إن كان هذا ما يودّ القيام به فعلًا، وغير عارف لماذا لم يخطر له ذلك من الأساس.

«من فضلك دكتور، اتصل بهذا الرقم واطلب منه المحامي رامي أمين، وحين تتحدث معه اطلب منه المجيء إلى هنا. إياك أن تأتي على ذكر أنّي ما زلتُ حيًّا، ولكن قل له إن للأمر علاقة بي، ذلك سيكون كافيًا على ما أظن ليترك كلّ شيءٍ ويلتقيَ بكَ.»

ناول أنور نزار ورقة استلّها من دفتر صغير يتركه الأب نقولا قرب الهاتف، سجّل عليه رقمًا لهاتف أرضي، يتّضح من مطلعه أنه رقم مكانٍ في منطقة غير سكنية. إنه رقم مكتب.

– من يكون هذا؟

– محاميَّ ومحامي الأسرة. والأهم من هذا كله، هو أقرب أصدقائي، والآن عليّ أن أكلمه قبل أن يكمل إجراءات شهادة وفاتي وحصر الإرث وما إلى ذلك من الأمور القانونية.

ـ وماذا عن أسرتكَ؟ ألن تقابلهم أولًا؟

تكرّر السؤال الذي لم يستطع أن يجد له أي جوابٍ طبيعي، وخرجت منه إجابة غريبة، إجابة جعلته يستغرب ما فعلت به هذه التجربة العصيبة: «لا أدري، ربّما من الأفضل ألا أظهر مجددًا في أي وقتٍ قريب».

– مرحبًا.

– أهلًا، كيف أستطيع أن أساعدك؟

– أريد التحدث إلى الأستاذ رامي أمين.

– الأستاذ رامي مجتمع الآن بأحد موكليه، هل أجعله يتصل بك حين ينتهي؟

– لا، أنا بحاجة لأتكلم معه الآن، قولي له إنّ الأمر يتعلق بالسيد أنور نجار ولا يستطيع الانتظار.

حينها صمتت رانيا سكرتيرة رامي. لم تعلم ماذا يفترض بها أن تفعل، جلسات رامي مع موكليه كانت أمرًا مقدسًا، وفي الوقت نفسه، فإن أنور ربّما كان الشخص الأهم بالنسبة إلى رامي.

«لحظة من فضلك.»

دخلت بهدوءٍ إلى مكتب رامي بعد أن نقرت على الباب وأذن لها بالدخول. اقتربت منه حتّى كادت تلتصق به. همست في أذنه: «هناك شخصٌ يريد التكلم معك على الهاتف، يقول إن الأمر يتعلق بالمرحوم أنور، ولا يستطيع الانتظار.»

كان للاسم أثره، فرامي ما زال في مرحلة الصدمة. كان اسم أنور يعني له الكثير. نهض سريعًا عن كرسيه معتذرًا للموكّل عن المقاطعة وخرج إلى مكتب رانيا، سكرتيرته. تناول سماعة الهاتف، صمتَ لثوانٍ قبل أن يبدأ بالكلام.

– رامي أمين يتكلم، من معي؟

– أنا الدكتور نزار أكرم، أودّ لو ألتقي بكَ لنتحدث في أمر يتعلق بوفاة السيد أنور. أودّ لو نلتقي الآن.

– ألا يستطيع الأمر الانتظار؟ لديّ عدة مواعيد مع الموكلين، لن أتفرغ قبل السابعة مساءً.

– هذا بعد خمس ساعات؟

– نعم...

– لا! لا أستطيع الانتظار، عليّ أن أراك الآن.

بدأت مشاعر غريبة تراود رامي. لم يعد يفهم ما هو الأمر الذي لا ينتظر ويتعلق بميتٍ. لا بدّ من أنّ الأمر ليس شأنًا قانونيًا، فساعات العمل في الدوائر الحكومية انتهت، وما دامت قد انتهت، فلا بد من أن يستطيع الأمر الانتظار.

– حسنًا، سألغي مواعيدي. أين أراك؟

– في مقهى «كوستا» في أبو رمانة، أعتقد أنه قريب منك.

– نعم هو كذلك، لكن كيف سأعرفك ومتى أذهب؟

– اذهب الآن وسأوافيك خلال عشر دقائق. أعطني رقم هاتفك الجوال كي أتصل بك حين أصل إلى هناك.

– حسنًا إليكَ رقمي: 094749...

عاد مسرعًا إلى المكتب واعتذر من الموكّل، تناول سترته ومفتاح سيارته وهاتفه وخرج من دون أن ينتظر خروج الموكّل، وعند مروره قرب رانيا طلب منها أن تؤجل كلّ مواعيده إلى يوم الأحد.

صعد في سيارته وقادها كالمجنون إلى أمام فندق «فور سيزنز». دخل مقهى كوستا وجلس بانتظار وصول الطبيب المجهول.

طلب مشروبًا ساخنًا. واصل النظر إلى هاتفه بانتظار أن يرنّ. مرّت خمس عشرة دقيقة. ندم لأنه لم يطلب من نزار رقم هاتفه.

أخيرًا رنّ هاتفه برقم غريب على شاشته.

– مرحبًا أستاذ رامي.

– أهلًا، هل دخلت؟

– نعم، أين أنت؟ قف لأجدك.

– هنا، أنا هنا.

جلس نزار، وطلب مشروبًا باردًا وبدأ الحديث مع المحامي رامي.

– أعتذر عن طريقة اتصالي، لكنّ الأمر بالفعل لا يحتمل الانتظار.

– لا بأس، ولكن ما الأمر؟ أنا على علم بكل مسائل المرحوم القانونية العالقة، ولا أذكر أنّك جزءٌ من أيٍّ منها.

– الأمر ليس قانونيًا. هو إلى حدٍّ ما طبّي. سأشرح لك أمرًا الآن وبعد ذلك سنذهب لنقابل شخصًا ذا علاقة أوثق بالموضوع.

قاطع النادل جلستهما ليقدّم المشروب الذي طلبه نزار. بعد أن ذهب، ارتشف نزار بعضًا منه استعدادًا لشرح أمر يعلم أنه قد يضطر إلى إعادة شرحه كثيرًا في المستقبل القريب.

«هناك حالة طبية تُدعى بالموت الظاهري. تبدو، عند معاينتها سريريًا، حالة موتٍ مثبتٍ قانونيًا وطبيًا. فمن المستحيل أن نكتشف، من خلال الفحص السريري، أن الأمر ليس كذلك. لذلك، نحكم على الحالة بأنها وفاة، ولكن...»

«ولكن ماذا؟»، قال رامي مذعورًا. لم يستطع بالفعل أن يفهم تفاصيل ما قاله نزار. كلّ ما فهمه هو أن الموتى قد لا يكونون أمواتًا، وبدأت ترعبه حتّى الموت فكرة أن يكون قد دفن صديقه حيًا.

– حسنًا! ما سأقوله قد يبدو صعبًا، ولكن السيد أنور قد تعرّض لهذه الحالة.

– هل تعني أننا دفنّاه حيًا؟

– ليس الأمر بهذه السلبية، فالنتائج لم تكن بالسوء الذي تتوقّعه.

– وأنت ما أدراك أن هذا حصل له؟ هل كنت تعلم بذلك قبل أن ندفنه وسمحتَ بقتله بهذه الطريقة البشعة؟

– لا عجب في أنكما أصدقاء؛ كلاكما تتكلمان كثيرًا ولا تسمحان لغيركما بإكمال جملته. اصمت قليلًا واستمع. أنور لم يمت، وقد استطعت أنا وشخصان أن نعلم بأمره وننقذه من الموت. الآن سنذهب، أنا وأنت، لنلتقي به؛ فقد طلب رؤيتك قبل أن يلتقي أسرته حتّى.

– وأنى لي أن أصدقك؟ ثمّ، إن كان بالفعل ما زال حيًا فلماذا لم يتصل بي مباشرة؟ لماذا أرسلك أنت لتكلمني؟

– لا أدري، ولكن ربّما لأنّ مَن يُفترَض بهم أن يكونوا أمواتًا لا يستطيعون ببساطة الظهور في الطرقات وإرسال بدلاءً منهم إلى القبور. تعالَ معي الآن وسترى بعينيك وأنتهي من هذا الشكّ الذي يجمعكما، إضافة إلى كثرة الكلام ومقاطعة الآخرين.

خرجا معًا من المقهى. رافق رامي نزار، إن لم يكن بدافع التصديق، فبدافع الفضول.

– هل سيارتك قريبة من هنا؟

– لا، لم آتِ بسيارتي.

ارتاح رامي للفكرة. ما دام هو من سيقود، فلن يكون هناك مخاوف من اختطاف أو سرقة أو ما إلى ذلك. كان نزار يرشده إلى الطريق ويقتربان شيئًا فشيئًا من المكان. كان رامي يقود بسرعة جنونية، حتّى أخذ في النهاية يتجاوز الإشارات الحمراء، تاركًا المخالفات الغيابية تنهال عليه.

حين وصلا إلى مدخل بناء منزل الأب نقولا وترجّلا، قال نزار لرامي: لو كان أنور معنا وأنت تقود بهذه الطريقة، لكان قد قتلك الآن.

جمد رامي في مكانه لثوانٍ. تأكّد حينها أن نزار بالفعل قد التقى بأنور، ولكن ما معنى ذلك؟ ربّما قد التقاه قبل وفاته وعلم هذه الأمور عنه.

صعدا إلى منزل الأب نقولا. فتح لهما: «تفضّلا بالدخول.» وبعد أن ابتعد عن الباب استطاع رامي أن يرى أنور جالسًا على الأريكة. دخل وتسمّر هناك من دون أن يعلم ماذا يفعل، إلى أن نهض أنور. وقف أمامه ناظرًا إلى عينيه مباشرة ليتمكن من رؤية وجهه بوضوح ويتأكد أن ذلك هو أنور وليس شخصًا شبيهًا به أو ما إلى ذلك.

تعانقا طويلًا. لم يكن أنور عاطفيًا جدًا، على عكس رامي، فهو الذي ظنّ أن أغلى أصدقائه ميت، والآن يراه حيًا بأمّ عينه. تأكد أن كلّ ما قاله الطبيب كان صحيحًا. الأهم من ذلك هو أن أنور تأكّد من صحة ما أخبروه أنه قد حصل له، واستطاع أن يميّز بعد عناءٍ طويل بين الحقيقة والخيال.

كانت بيسان ابنة أنور الكبرى جالسة على سريرها، ورأسها يكاد يلمس ركبتيها وهي تحدّث رفيقها كنان على الهاتف.

– أحيانًا تراودني مشاعر غريبة. أشعر بأن العالم كله يقف في وجهي. ها نحن في بداية العام وفقدتُ أبي. هل يفترض بي الآن أن أتمكّن من النجاح ومن دخول الجامعة؟ أفكر في التخلي عن رفضي السخيف لدخول جامعة خاصة وفي السّعي إلى النجاح وحسب، تاركةً الباقي لنقود أبي.

– لستِ تفكّرين بشكلٍ صحيح. حسنًا، لقد توفّي أبوك وهو أمر كبير مهما حاولنا أن نواسيَكِ. لكن الأمر حصل في بداية العام كما قلتِ، ما يعني أنه ما زال هناك وقتٌ طويل كي تستدركي التقصير الذي يعرف كلانا أنه سيحصل في الأيام القادمة. تخيلي لو كان رحيل والدكِ في شهر أيار مثلًا، ماذا كان يمكن أن تفعلي حينها؟

– لا أدري ماذا علي أن أقول، الآن، لستُ أقوى على التخيل ولا على أي شيء، المهم الآن أنني أريد أن أراك. غدًا سننتهي من أمر صلاة الأسبوع، وسأكون مساءً قادرة على الخروج...

«هيا، تعالي بيسان»، قاطعتها والدتها صارخة من المطبخ، «سيبرد الطعام ونحن ننتظركِ».

– علي أن أُنهي الاتصال لأتناول الغداء مع أمي وأختي، نتكلم في ما بعد. وداعًا.

- وداعًا.

ذهبت مسرعة إلى المطبخ حيث كانتا مجتمعتين حول المائدة. بعد أن جلست بيسان، كانتا على وشك البدء بالطعام حين قاطعتهما بانة. لم تكن تسمح لأحد في المنزل بأن يأكل قبل أن تصلّي.

«أَعْيُن الكلّ إياك تترجى وأنت تعطيهم طعامهم في حينه...»

انتهت من صلاتها وبدأنَ بالطعام. منذ توفي أنور وهنّ يجهّزن - أو بالأحرى يطلبن - كمية أقل من الطعام. كنّ يأكلن ليستمررن بالحياة، ولكن واحدة منهنّ لم تكن تشعر فعلًا بالجوع. كنّ يأكلن على مهل حين رفعت بانة طبقها ورمته على الحائط فانكسر وتهشّم إلى قطع صغيرة.

توقّفت أمها وأختها عن الأكل ونظرتا إليها. كانت تبكي بعض الشيء، ولكنها كانت ترتعد خوفًا، كأنها رأت وحشًا أمامها.

«ما بكِ؟ ما الذي حصل؟»

ردّت بانة بكلمتين: «ما مات!»

ظنّت أمها أنها إحدى نوبات الحزن الهستيرية التي لم تسلم واحدة منهن منها في الأيام القليلة الماضية، ولكن الأمر لم يكن كذلك.

«رأيتُ أننا نجبر بابا على دخول القبر وهو يقاوم آبيًا الدخول، ولكننا بقينا نحاول رغم أنه حيّ.»

لم تكن تلك الرّؤى جديدة على بانة. لطالما اعتقدت أنها تأتيها من الله، لكن أهلها كانوا يخالفونها الرأي. عرضوها على طبيب نفسي، ثمّ قام أنور برشوة أحد الكهنة ليقنعها بأنها مجرّد أحلام يقظة وليست رسائل إلهية. إلا أن بانة لم تتوقف عن أخذها على محمل الجدّ، والآن، ها هي تزداد حدّة.

نهضت مسرعة نحو غرفتها واستلقت على سريرها. أخذت تبكي بكاءً مرًّا. شيءٌ ما في داخلها جعلها تفكر وتبحث عن احتمالات تجعل من والدها الذي أودعوه القبر حيًّا أمام عينيها. لم يكن هناك أي احتمال أو تفسير يجعل ذلك ممكنًا. ولكنها متأكدة، فتلك الرؤى لم تكذب يومًا. اتصلت بأبيها الروحي وطلبت أن تلتقيه.

بعد دقائق، دخلت بيسان إلى غرفتها. كانت بانة مستلقية على جنبها حين ربّتت بيسان كتفها. اقتربت منها وقبّلت جبينها: «أعلم بالضبط ما الذي تمرّين به الآن، فأنا نفسي أمرّ به أيضًا. حتّى أنا أتمنى أن يكون حيًّا وأن يعود إلينا. لكن والدنا الآن ميتٌ. لقد أنزلوه القبر أمام أعيننا، وهذه حقيقة علينا أن نتعايش معها».

لم تردّ بانة على ذلك الكلام، إنما اكتفت بالتنهد. كانت تعلم أن إقناع من حولها بصحة رؤاها صعبٌ جدًّا، وخصوصًا بيسان التي ابتعدت عن الإيمان منذ سنين خلت، وأصبحت شيئًا فشيئًا أكثر علمانية وأكثر ابتعادًا بتفكيرها عمّا تسميه «أيديولوجيا القطيع».

خرجت بيسان من غرفتها فاقدة الأمل هي الأخرى. مرت بغرفة الجلوس، وكانت أمها تتحدث على الهاتف مع أخيها تحكي له عمّا فعلته بانة، والطعام ما زال على الطاولة، ولم ينظف أحد الزجاج.

لم تشعر بالرغبة في أن تقوم بأعمال المنزل. عادت إلى غرفتها هي الأخرى، وفتحت كتاب العلوم محاولة أن تستذكر، ولكن من دون أمل؛ فقضية موت والدها ما زالت تشغل تفكيرها، وأتت الآن رؤيا بانة - التي لسببٍ ما عنت لها شيئًا - لتعيد موته إلى السطح بعد أن بدأ يغمره التسليم بالأمر الواقع.

– أريدك قبل كلّ شيءٍ أن توقف معاملات وفاتي. لا شهادة وفاة ولا حصر إرث ولا أيّ شيءٍ قد يجعل مني ميتًا رسميًّا.

– بالطبع لن أفعل، فأنا أراك أمامي الآن، وما من شيءٍ يجعل منكَ ميتًا. لكن متى ستذهب لترى عائلتكَ؟

– لا أظنني سأفعل الآن!

– ماذا تعني بأنك لن تفعل؟ بيسان وبانة وسلوى يبكينك الآن، بينما تجلس هنا. هل هذا عادل بحقّهن؟

– سنتحدث عن ذلك لاحقًا، المهم الآن. هل تحمل مفتاح منزلي في «ركن الدين»؟ كنتُ قد تركته معك حين أراد أحد أصدقائك أن يعاينه.

– نعم، في «تابلوه» السيارة.

– فلنذهب إلى هناك الآن إذًا.

نهضا للانطلاق. لم يكن رامي يدرك بالفعل ما الذي يحصل وما الذي ينوي أنور القيام به. لكنّ قرار الظهور بعد الموت هو قرارٌ يتخذه فقط من عاد من الموت.

«شكرًا لكم، لقد أنقذتم حياتي، دخولي إلى القبر لم يكن كافيًا كي أموت، وذلك بفضلكم.»

قال تلك الكلمات وذهب مع رامي. صعدا في سيارة رامي، وبدأ بالقيادة باتجاه «ركن الدين». سلكا طرقات سريعة، ولكن أنور لم يكن يسمح له بزيادة سرعته على الأربعين أو الخمسين كيلومترًا في الساعة.

بعد أن دخلا المنزل، بادره رامي بالسؤال قبل أن يبدأ بالحديث عن أي شيءٍ: «الآن بتنا وحيدين. هل لكَ أن تتكرم وتخبرني لماذا لا تريد رؤية عائلتك؟»

رمى أنور بنفسه على الأريكة. نظر إلى رامي من دون أي انطباع بادٍ على وجهه.

– لن أستطيع أن أخبرك بالضبط؛ فأنت لم تختبر المكوث في قبر، ولكن عليك أن تعلم أنكَ حين تجرّب شعور رؤية الموت وجهًا لوجه ستعلم أن ما من شيءٍ وما من شخص في العالم يعود له أهمية.

– حسنًا، شكرًا لكَ على درس الفلسفة هـذا، ولكن لم أفهم العلاقة بين ذلك وعائلتك.

– العلاقة بسيطة جدًّا. أنا رجل يملك مالًا يكفي أسرتي ويكفيني. أصبحتُ فجأة في موقع يجعل الجميع يظن أنني ميت، أي أنّ لا أحد سيبحث عني ولا أحد سيبحث عن أرقامي، فهل هناك وضع أفضل من هذا ليكون بداية جديدة؟

– منذ متى وأنت تفكر بهذه الطريقة؟ منذ متى تتحدث عن البدايات والنهايات؟

– منذ استيقظتُ ووجدتُ نفسي في تابوتٍ وأدركت أن ذلك حقيقة. أدركت أنه حقيقة. منذ ذلك الحين، منذ أصبحت جميع كوابيسي وجميع أفلام الرعب التي شاهدتها في حياتي نقطة في بحر الخوف الذي اختبرته.

بقي رامي صامتًا. أحسّ حينها بأن بقاء صديقه على قيد الحياة هو فكرة ممتعة له، ولكن وجوده في قبر ليس بالأمر المفرح، وعلم في اللحظات التي قال فيها أنور كلماته أن هذا الصديق الذي يجلس مسترخيًا قد مرّ بأصعب أمرٍ في الحياة، الموت.

«أنا جائع، هل تعرف مكانًا قريبًا نأكل فيه؟»

خرجا معًا ليأكلا في محلّ قريب. أكل أنور بنهم غير مهتم برامي الذي بقي يراقبه بصمتٍ. بعد ذلك ذهبا إلى السوق ليشتري أنور بعض الملابس بدلًا من البزة التي يرتديها. قضيا عدة ساعات يـدوران في السوق؛ فقد كان عليه أن يشتري كلّ شيء من الصّفر:

ملابس داخلية وشفرات حلاقة، ملابس نوم وملابس للخروج. كلّ شيءٍ. وفي النهاية اشترى هاتفًا جوالًا وأعطى رقمه لرامي الذي حفظه باسم «السيد عماد زهران»، خوفًا من أن يعبث أحد بهاتفه ويجد رقمًا جديدًا لرجل ميت.

حين عادا إلى المنزل أخرج أنور ورقة وقلمًا وكتب عليها قائمة بالأغراض التي اشتروها. كان مجموع ثمنها تسعة آلاف ليرة. طلب من رامي أن يحضر له بطاقته المصرفية من منزله وبعض الأوراق وهاتفه الجوال بحجة الأمور القانونية التي لا يفقهها أحدٌ من أسرته.

– ماذا تنوي أن تفعل الآن؟ يبدو أنك تستعد لحياة جديدة كليًا...

– مبدئيًا سأدفع لك ثمن هذه الأشياء، وبعد ذلك هناك مخطّط في ذهني سيحلّ كلّ شيء.

– لم أطلب منك أن تدفع ثمن شيءٍ، ولكن ما المخطط الذي تسعى إليه؟

نظر أنور إلى رامي وارتسمت على وجهه ابتسامة شريرة، تلك الابتسامة التي يطلقها حين يجد أنه خارج بفكرة بالغة الذكاء.

«لديّ، إضافة إلى هذا المنزل، والآخر الذي تعيش فيه أسرتي، وذلك الصيفي في الناصرة، سبعة منازل أملكها. ولا ألعب فيها دور الوسيط وحسب. ستقوم أنتَ بإقناع عائلتي بأنّ الحل الأفضل لاستثمارها هو تأجيرها، ولكنك ستخبرهم عن خمسة منازل فقط. اليوم هو الخامس عشر من تشرين الأول، عليك أن تجد مستأجرين للمنازل السبعة. سيكون إيجار خمسة منها كافيًا لتأمين حياة كريمة لأسرتي، فمجموع إيجاراتها سيبلغ نحو ستين ألفًا. أما المنزلان الباقيان، فسأستفيد أنا من تأجيرهما الذي سيدرّ عليّ نحو خمسة وثلاثين ألفًا. سيكون هذا هو الوضع ريثما أقرر ماذا أفعل. لديّ في

رصيدي المصرفيّ مبلغٌ يكفيني للأيام الخمسة عشر الباقية حتّى أتسلم إيجارات المنازل.

بعد أن تحضر لي ما طلبته من المنزل وتقنع سلوى بهذا الاستثمار، اجعلها توقّع، عن نفسها وعن بيسان وبانة، بما أنهن دون الثامنة عشرة، على ورقة توكلك بها التصرف بحصتهن من الميراث. بالطبع أنت ستقوم في ما بعد بإحراق هذه الورقة أو تمزيقها أو أيٍّ ما شئت القيام به.»

في ذلك الحين، كان نزار يتناول العشاء مع زوجته وابنه، وتفكيره مشغولٌ كليًا بأنور وبكم هي غريبة قصته. كان ينظر إلى زوجته وابنه ويفكر إن كان لن يأتيَ لرؤيتهما لو دخل قبرًا وخرج منه. كان يتآكله الفضول لمعرفة ما الذي حصل لأنور. يريد أن يعلم بماذا يفكر الآن، وهل تغيرت نظرته إلى الحياة كما يفترض أن يحصل وفقًا للروايات والأفلام.

كان بأمسّ الحاجة لأن يفهم كيف يمكن ما حصل مع أنور أن يجعله غير راغب برؤية أسرته. هل هناك في الموت ما يمكن أن يجعلنا ندرك حقيقة محجوبة عنا أثناء الحياة، رغم أنه يعلم - بحكم ثقافته الطبية - أن ما مرّ به أنور ليس موتًا، ولكنه رغم ذلك لم يستطع أن يتصور الأمر إلا بهذه الطريقة.

الموت... كم رأى هذا الطبيب من الأجساد تغادرها الحياة، وكم من المرّات كان هو آخر من ينظر إليه الناس قبل أن يموتوا؟ لم يكن الشخص الأخير أحد أحبائهم. لم يكن زوجة الرجل أو ابنه أو أمه، بل كان الطبيب. في تلك اللحظات كان يرى نزار كم يصبحون أكثر تعلقًا بالحياة، أكثر تمسّكًا بها، لا يأبهون لمن يريد توديعهم؛ فهم

يريدون فقط الطبيب الذي يقدر ربّما أن يعيدهم من المكان المجهول الذي هم على وشك الذهاب إليه.

رغم كلّ الموت الذي رآه، فهو لم تكن لديه يومًا فكرة واضحة عمّا يمكن أن يكون عليه. كان يفضّل أن يفكّر في الأمر كما لو كان هؤلاء الموتى ينتقلون إلى مكانٍ آخر، عالمٍ آخر فيه كلّ من كانوا أحياءً في عالمنا قبلًا. كأنّ ما نمرّ به الآن ليس سوى مرحلة ولادة نخرج من بعدها إلى ذلك العالم حيث نلتقي جميع من ماتوا قبلنا. سيكون بعضهم يتحدثون عن نزار وكم بذل من الجهد لينقذهم، وبعضهم سيتذكرون اللحظات التي سبقت موتهم ويضحكون. سيتحدّثون عن أن خوفهم كان بلا معنى، متمنين لو كانوا يستطيعون أن يخبروا أحباءهم من الأحياء عن المكان الذي هم فيه الآن كي لا يرتعبوا من الموت كما فعلوا هم في لحظات حياتهم الأخيرة، وكي يودّعوا أحباءهم بدلًا من قضاء الدقائق الأخيرة مع طبيبٍ لا يعرفونه.

كان الأب نقولا يقيم صلاة الغروب في كنيسته، تاركًا هذه المرّة الجوقة تقرأ المزامير ومقاطع الصلاة، وهو جالسٌ في الهيكل مدّعيًا التأمل. الأمر الوحيد الذي كان يتأمله هو أنور. كان يفكر بعمقٍ، محاولًا معرفة ما سيحصل بعد الموت، يفكر إن هو سيكون محظوظًا كأنور ليتمكن من الخروج من القبر.

كان التفكير بالأمر أصعب عليه مما هو على نزار؛ فهو كاهنٌ، يتأمل - أو هذا ما يقوله - بحياة أخرى بعد الموت، حياة سيكون من أول المحظوظين فيها، ليس فقط لأنه يفعل كلّ ما هو مطلوب ليعيش فيها بهناءٍ، وإنما أيضًا لأنه كان يخبر الناس عنها ويدعوهم ليفعلوا مثله ويحجزون بطاقتهم إلى الجناح الملكي في مقرّ إقامة البشر

الجديد بعد الموت. تمنى لو أن الطبيب اللعين لم يشرح لهم أن ما مرّ به أنور ليس موتًا، كان سيسأله الكثير عما رآه وهو ميتٌ، وكان سيحاول، كما يفعل دائمًا، أن يفسّر أي شيءٍ بشكلٍ يجعله يصبّ في ما يؤمن به هو عن الموت، إن لم يكن من أجل من يسمعونه، فمن أجله هو ومن أجل الراحة الداخلية التي يعجز عن إيجادها ما دام غير متأكد مما سيحصل بعد الموت. فلا أحد عاد من هناك وأخبر ماذا سيحصل.

كم عليه أن ينتظر حتّى يأتي اليوم الذي يموت فيه كي يعلم إن كان كلّ ما آمن به طوال حياته صحيحًا، إن كان ذلك الحضن الذي هرب إليه بعدما عجز عن إتمام دراسته الطب وانهار كلّ شيءٍ فوق رأسه دافئ بالقدر الذي قيل له؟

شعر في تلك اللحظات بالخيانة. شعر بأنه يخون كلّ من كان يكلّمهم عن الموت وكيف يؤمن به الدين بثقة، وأنه كان يجب أن يكون أكثر ثقة بما يخبرهم إياه. شعر بأنه مثل الطبيب الذي يقدم دواءً لمريض، وهو غير مستعدٌّ بعد لتجربته بنفسه؛ لأنه غير واثقٍ من قدرته على الشفاء.

أخذ عقله يسترجع الوصوف التي تـزوّده بها أسفار الكتاب المقدس، عن ملكوت الله، والملائكة المختلفة المراتب والأشكال، وخصوصًا تلك الملائكة التي تغطي جسدها بأجنحتها الأربعة وتطير بالجناحين الباقيين. تذكّر تلك الأوصاف التي يضجّ بها سفر رؤيا يوحنا، والمفعمة بالخيال. خطر له في تلك اللحظة أن يكون الخيال الغزير الذي فيها من صنع البشر، ففتح عينيه وصلّى: «ربي يسوع المسيح ارحمني واغفر لي، أنا عبدك الخاطئ». إرتعب: لعلّه بدأ يجدّف.

ولكن، على الرّغم من وخزة الذنب الصغيرة تلك، ظلّ يلازمه الشعور بأن كلّ ما يؤمن به وكل ما علّمه للمؤمنين وما سيعلّمه لهم ليس حقيقيًا، بل مجرّد خيال، والشيء الحقيقي الوحيد هو غرفة مظلمة وتابوت فارغ في داخلها. ذلك فقط هو الحقيقي.

لم يعد الطبيب نزار يطيق صبرًا. اتصل برامي وقال له إن عليه أن يعاين أنور خوفًا من تعرّضه لمضاعفات. لم يكن ذلك هو هدفه في الحقيقة. كلّ ما كان يريده هو إشباع فضوله.

«سأرسل لك الآن رسالة برقمه، اتصل به واتفق معه على موعد.»

كان الوقت قد تأخر، ولم يعد من المناسب أن يتصل بهِ. قرر أن يتصل به في اليوم التالي وأن يلتقيه بعد انتهاء ساعات العمل.

دقّت الساعة الثانية عشرة لينتهي رسميًا ذلك النهار الشاق لكثيرين. كان رامي وأنور نائمين، ورامي يحتاج للراحة؛ إذ كان الكثير من العمل بانتظاره يوم غدٍ، فعليه أن ينجز عددًا من الأعمال التي أجّلها اليوم. كذلك عليه زيارة سلوى ليحصل منها على التواقيع وعلى أغراض أنور وأوراقه.

نزار نائم ولا يطيق صبرًا بانتظار يوم الغد كي يتصل بأنور ويراه ويشبع فضوله. مثله، سلوى وبيسان نائمتان.

لم يكن مستيقظًا في تلك الليلة سوى شخصين؛ أحدهما عمر الذي، وللمرة الأولى، لم يجلس مع إبريقه وكأسه، وإنما أخذ يتجول بين القبور، علّه يجد حيًّا آخر ينقذه فيستعيد الغبطة التي شعر بها حين فعل ذلك لأنور.

شعر حينها بأنهم ليسوا مجرّد أموات، وندم على الأوقات التي قضاها من دون أن يكون صديقًا لهم. كانت تلك المرة الأولى التي

يرى فيها إنسانًا يخرج من القبر بدلًا من الدخول إليه. كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها شخصًا «ينجو من الموت» حرفيًا. جعله ذلك يفكّر في الوجوه التي تخفيها هذه القبور. لسوء حظه، هو يحرس مقبرة مسيحية، حيث يُدفَن الناس في توابيت فلا يحظى بفرصةٍ لرؤية وجوههم.

منذ رأى أنور، باتت تسيطر عليه فكرة أنّ لِمَن يُدفنون هنا وجوهًا غريبة عنه تجعله يتجوّل بين القبور، محاولًا استشفاف أي شيءٍ عنهم. أصبح يعيد إشعال الشموع الموضوعة على حوافّ بعض القبور، محاولًا إضفاء بعض الحياة عليها. لا بد أن الموتى في هذه المقبرة يشعرون بالحنين إلى الحياة التي زارت عالمهم تحت الأرض للمرة الأولى ربّما.

أما الشخص الآخر المستيقظ في تلك الليلة، فكان بانة، التي ما زالت تؤرقها رؤية والدها يُدفن رغمًا عنه، وتفكّر في ألف طريقة كي تتأكّد من موته. لم يراودها لثانية شكٌّ في كونه حيًّا يُرزق، إلا أن جميع الأبواب كانت موصدة في وجهها. فأمها وأختها العلمانيتان لن تصدقا رؤيا تراود فتاة تدّعي أن الله يتواصل معها. حاولت في النهاية أن تنام. فيوم غد، سيكون عليها أن تزور قبر والدها وتتقبل التعازي مجددًا في صلاة الأسبوع، التي لا تقع دائمًا بعد أسبوع من الوفاة، وإنما تُقام في أول يوم عطلة. قبل أن تغلق عينيها المثقلتين بالنعاس، ردّدت آيتها المفضّلة: «تعالوا إلي أيها المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم».

«الموت شيءٌ طبيعي، الموت هو موتنا نحنُ ومع ذلك لا نفكر فيه إلا بوصفه موت الآخرين. المهم أن نستمر بالإبحار. الحرب تواجه الإنسان بالموت وتجبره على الاعتراف به؛ الموت كدافع للتفكير، الموت عند البدائي، فكرة الروح والخلود والشعور بالذنب. لاشعورنا البدائي تفضحه الحروب».

سيغموند فرويد

الحبّ والحرب والحضارة والموت

الجمعة 16 تشرين الأوّل 2009

إنها المملكة الشامخة منذ فجر التاريخ، تتوالى مئات الممالك والإمبراطوريات والدول والدويلات وتبقى هي الوحيدة، تبقى قامعة كلّ أعدائها، واضعة إياهم تحت التراب طعامًا للديدان، وقودًا للنيران أو أحجارًا تغطس بهدوءٍ في قاع البحار والمحيطات. ألوف الملوك سيطروا على الرجال والنساء وحتى الطبيعة، لكنّ واحـدًا منهم لم يستطع السيطرة على الموت، ولا ملك - ولا حتّى واحد - استطاع أن يهزمه. مهما هزم الملوك من الأعـداء، يبقى الموت عدوهم الأخير الذي لن يهزموه.

إنـه المكان الـذي لا يرغب إنسانٌ في زيارتـه، ورغـم ذلـك هو الأكثر استقبالًا للمهاجرين من كلّ صوب في العالم. هو المكان الذي يسافر الناس إليه بلا توقف، يسيرون جميعهم في طرقٍ مختلفة توصل إلى مكانٍ واحد. البعض طرقهم طويلة، تمتدّ على عشراتِ السنين، والبعض الآخر طرقهم قصيرة، بل يصلون إلى المكان قبل أن يبدؤوا بالسير حتّى. المكان يعجُّ بالبشر، المليارات منهم وربّما أكثر، ورغم ذلك فيه دائمًا متسعٌ للجميع. يموت فجأة مليونا إنسانٍ في حربٍ،

يصلون إليه فورًا. وهو لا يجد صعوبة في استقبالهم. يكون دائمًا بانتظارهم، ويعلم أنهم مهما تأخروا فلن يستطيعوا أن يتأخروا كثيرًا.

«وُلد ولكن جسمه كان ضعيفًا فمات»، «عاش حياة لطيفة وعمرًا مديدًا قبل أن يموت»، «أراد أن يعيش حتّى عمر الثانية والثمانين، ولكنه مات وهو في الرابعة والسبعين». فعل مات لا يُستخدَم إلا بصيغة الماضي؛ فهو فعلٌ لا مكان للحاضر فيه، يحصل في لحظةٍ، ليس في ثانية وليس في جزءٍ بالمليون من الثانية، إنما في لحظة، في وحدة قياس أصغر من أن يقيس الأحياء بها الزمن، فقط الأموات يعلمون طول هذه المسافة من الزمن.

وهو دائمًا آخر فعلٍ يُنسَب إلى الإنسان، آخر أمرٍ يمرّ به. إلّا أن أنور غيّر تلك القاعدة؛ إذ فعل الكثير من الأمور بعد موته...

استيقظ الطبيب نزار باكرًا وهو يفكّر بأنور، لا يطيق صبرًا حتّى يتصل به ويطلب لقاءه كي يعرف منه كيف يصبح الأموات بعد أن يخرجوا من القبور، لطالما تصورّهم مثل أليعازر الذي أقامه المسيح من بين الأموات، حين وصفه ذلك الكاتب اليوناني بأنه كالجثة المتعفنة التي تسير، يسهل اقتلاع يده وحتى شطره إلى نصفين بعد أن تحلّل.

دخل المستشفى، وكانت الساعة لا تزال التاسعة صباحًا. من المستحيل أن يتّصل برجل خارجٍ من القبر في هذا الوقت. من السهل الاهتداء إلى أصول التعامل مع ظرفٍ مثل هذا، ولو كان بهذه الندرة. دخل إلى غرفة تغيير الملابس كي يخلع قميصه ويرتدي رداءه الطبي. أخذ ينظر إلى المرآة، منتظرًا أن يحدثه الشخص الذي فيها ويخبره شيئًا لا يعرفه عن الموت، أي شيء.

هل يتحدّث في المرآة انعكاسٌ سخيف؟ لمَ لا؟ ثمة شخصٌ قام من القبر. هل يظل من الصعب بعد ذلك أن يتكلم انعكاسنا في المرآة؟ لم تكن معرفته الطبية ولا معلوماته عن حالة أنور كافية ليرى الأمر عاديًا. لم تكن كافية كي لا يرى الأمر وكأن هناك إنسانًا قام أخيرًا بتحقيق ما يحلم به جميع البشر: هزيمة الموت.

فجأة دخلت ندى مباغتة إياه وأغلقت الباب خلفها بسرعة، أتت من خلفه ولفّت يديها حول خاصرته.

– ماذا تفعلين في غرفة تغيير ملابس الرجال؟

– لا تخف يا صديقي! أنت الوحيد الذي وصل حتّى الآن. ما الذي يشغل بالك حتّى تصل باكرًا؟ كلانا يعلم أنك لا تأتي مبكرًا إلا مع المشاكل.

اقتربت أكثر منه حتّى بدأ يشمّ عطرها الفرنسي الذي يُعتبَر غاليًا بالنسبة إلى موظفة تتقاضى أجرًا كأجرها. أخذت تقبّل عنقه بشهوة ذات رائحة زكية، لكنه لم يشعر بأية رغبة بها. كان ما يشغل تفكيره يشلّ رغباته وغرائزه كلها.

«لا أشمّ الرائحة المعتادة منك، ما الأمر الذي يشغلك إلى هذا الحد؟»

بدأ يشعر برجفة في داخله. لطالما كانت هذه الممرضة تفوق نصف أطباء المستشفى ذكاءً، ولطالما كانت مشعلة للشهوة في حيواتهم الخالية من أي إثارة سوى تلك الحزينة التي تنتهي بموت مرضاهم.

«لِمَ لا تتكلم؟ هل أكل القط لسانك؟ أم ربّما كان ذلك المسيح الجديد؟»

خرج حينها نزار من حالة الجمود التي كان يحاول جاهدًا الحفاظ عليها. لم يتوقع أن يكون الخبر قد انتشر بهذه السرعة، وخصوصًا أن يصل إلى هذه الممرضة التي يلجأ إليها الجميع ليعلموا ما الذي يحصل في المستشفى.

«من الذي أخبركِ؟ هل من يعلمون كُثر؟»

راودتها نشوة كبيرة، شعور بالنصر للقضاء على صمته، فأصعب الأمور - برأي ندى - هي أن تحمل فتاة على الصمت وأن تحمل رجلًا على الكلام.

«لا أحد! ولكنّ هناك نوعين من الأشخاص: منهم من يأتي جريًا حين يرى شخصًا يصرخ ويستمتع برؤيته يصرخ أيًا كان مضمون صراخه، ومنهم - مثلي أنا - من اعتاد الصراخ وبات الكلام الذي يحمله الصراخ هو ما يعنيه.»

بالفعل، كان ذلك ما دار في ذهن نزار. فقد ظن أن أحدًا لم يميّز ما قاله أنور حين بدأ بالصراخ يوم أمس في المستشفى، بما أن الجميع - كما يرى هو وندى - يستمتعون بالصراخ وحسب ولا يهمهم موضوعه، كلّ ما يهمهم هو أن يرَوا شخصًا يصرخ، كما لو أنهم يشعرون بالسعادة لأن هناك من «صرخ» أخيرًا.

«نعم! ذلك المسيح الجديد هو من أكل لساني. ممكن أن تخرجي الآن؟ أظنك تعرضتِ بما فيه الكفاية للفضائح في هذه المستشفى.»

استدارت وخرجت بهدوء منتشية بنصرها، بينما لا تزال الرغبة تتآكلها. ففيما كان عشرات الأطباء في المستشفى يحاولون التحرش بها، كانت هي تفضّل نزار، الطبيب الأكثر جاذبية بالنسبة إليها، والذي كان أقل من استمتعت معه من بين الذين مارست معهم الجنس حتّى الآن.

أصبحت الساعة الثالثة ظهرًا. استيقظ أنور على صوت رنين الهاتف الذي اشتراه أمس. استغرب الأمر، فوحده رامي حصل على الرقم. وهذا الرقم المتّصل ليس أحد أرقام رامي التي يعرفها عن ظهر قلب. ارتبك من أن يكون المتّصلُ أحدَ أفراد عائلته.

– ألو!

– مرحبًا، كيف صحتك اليوم سيد أنور؟

– من المتكلم؟

– أنا الدكتور نزار، أظنك تذكرني من يوم أمس.

– نعم بالطبع، كيف حالك؟

– بخير، لقد حصلت على رقمك من الأستاذ رامي. أنا بحاجة لإجراء بعض الفحوص لأتأكد من ألا يكون ما تعرّضتَ له قد سبّب مضاعفات على جهاز الدوران في جسمك.

فكر أنور قليلًا ليتذكر ما هو جهاز الدوران، نعم! إنه القلب والشرايين والأوردة التي تنقل الدم، بالطبع، ليس بوسعه أن يشكك في رأي نزار عن أمر المضاعفات.

– بالتأكيد، هل آتي إلى المستشفى؟

– لا! لا تفعل، سأذهب أنا إليك. فقط أعطني عنوانك.

قال ذلك بدافع الفضول الذي يتآكله. أراد أن يرى كيف هو شعور من حوله، وأن يعرف إن كان أنور قد عاد لعمله أو قد حصل على إجازة مرضية بسبب «الموت».

حصل على العنوان. قصد غرفة تغيير الملابس. خلع رداءه وأخذ مفاتيح سيارته. حين خرج من باب الغرفة، وجد ندى واقفة بانتظاره. «ما مشكلتكِ؟ هل غيروا وظيفتك من ممرضة إلى حارسة لغرفة تغيير ملابس الرجال؟»

لم تبالِ ندى بتعليقه الذي لم يكن مضحكًا في النهاية. كانت هي الأخرى قد خلعت ثياب العمل متأهبةً للذهاب.

– إلى أين ستذهب؟ إلى منزلك أم لتزور المسيح؟

– إلى المنزل....

– لا تكذب أيها الطفل، لقد سمعتُ مكالمتك.

– حسنًا إذًا، لماذا تسألين ما دمتِ تعرفين الجواب.

– أريد الذهاب معك، أنا الأخرى أريد أن أرى أناسًا خرجوا من القبور، ربما يعطيني نصائح لتصميم قبري كي لا يكون مزعجًا.

– هل حقًا تستمتعين بالحديث عن قبركِ؟ الأمر ليس ممتعًا كما تتصورين.

– لا تغير الموضوع، أريد الذهاب.

– بصفتكِ؟

– مساعدتك. سأحمل حقيبتك وأهيّئ أدواتك، كما تفعل الممرضات في الأفلام قبل معاشرة الطبيب.

فكر قليلًا. كان يعلم أنها ستذهب في النهاية، وهي أساسًا لن تكون مشكلة كبيرة، فما من أحد سيصدق ممرضة ثرثارة إن نشرت خبرًا عن ميت يخرج من قبره.

عادت بيسان وبانة وسلوى إلى المنزل مع «ماليزا»، خادمتهن الآسيوية، بعد نهارٍ طويلٍ تقبّلن فيه التعازي، وتخلّلته صلاة طويلة مملة لم تندمج فيها سوى بانة، ومن ثمّ اجتماع أخوة سلوى وأخوة أنور في منزل أهل أنور المهجور منذ وقتٍ طويل. كانت التعازي صعبة على بيسان وسلوى، بعكس بانة التي أصبحت مقتنعة تمامًا الآن بأن

والدها حيٌّ يرزق، وأنها ستضحك معه كثيرًا حين تصف له مراسم جنازته وأيام التعازي وصلاة الأسبوع.

رنّ هاتف سلوى. كان المتّصل رامي. ارتاحت لرؤية اسمه على شاشة الهاتف، فقد كان غائبًا عن الصلاة والتعزية، على الرغم من أنه الأقرب إلى أنور، حتّى أقرب من جميع البُله الذين كانوا يواسونها.

– كيف حالك سلوى؟

– بخير! كيف حالك أنت؟

– جيد، بخير، ألم تصلي إلى المنزل بعد؟

– بلى وصلت، لماذا لم تأتِ اليوم؟ هل كلّ شيء على ما يرام؟

– نعم كلّ شيء بخير، ولكن كان عليّ مراجعة بعض القضايا؛ إذ اضطررت إلى التوقف عن العمل يوم أمس.

– لا بأس، لقد نجوت من الكارثة الاجتماعية المزعجة.

– بالفعل! المهم، أريد أن أسألك: هل تملكين مفتاح أدراج أنور؟ أحتاج إلى بعض أوراقه.

– نعم بالطبع، هل أحضر الأوراق إليك؟

– لا، ما من داعٍ، سأمر عليكنّ مساءً لأبحث عنها.

– أهلًا وسهلًا، أنا بانتظارك.

اختفى رامي عن الهاتف، وترك سلوى وحدها تبحث عمّا يواسيها في مصيبتها. كان صوت رامي دائمًا يذكّرها بتلك الليلة الجميلة... ولكن لا! لا يجوز أن تفكر في تلك الليلة الآن، فدفء الأيدي التي قدمت لها التعازي لم يزل عن يديها بعد.

كان على الأب نقولا أن يلتقي بإحدى فرق مدارس الأحد الأرثوذكسية. لم يكن قد حضّر للموضوع الذي عليه تقديمه، لذلك قرر أن يرتجل شيئًا. فكر في أن يحدّثهم عن إيمان الكنيسة بالموت،

لكون الموت هو الشيء الوحيد الذي يشغل باله الآن، ولكنه وجدها فكرة بغيضة؛ لأنه الآن يمرّ بأسوأ مراحل الاعتقاد في ما يتعلق بالموت.

حين وصلوا إلى منزله، استقبلهم مثل العادة ببرود كي يجد المتملقون الفرصة ليقبّلوا يده «الطاهرة». جلسوا، وأدى دور الشرطي الجيد. قام بتلاوة صلاة صغيرة بدل صلاة الغروب التي اعتادوا صلاتها في اجتماعاتهم.

بدأ بالاطمئنان عليهم وبمحاولة الظهور بمظهر الكاهن الشاب المتزوج الذي يتفهم الحياة المعاصرة أكثر من غيره. بعد أن انتهى من الأحاديث العابرة التي شعر الشبان بطولها أكثر من المعتاد، صمت قليلًا. لم يكن يعلم بالفعل ما الذي عليه أن يحدّثهم به.

قرر أن يبحث عن إجابات بدلًا من إعطائها. عمر هؤلاء هو إحدى وعشرون سنة، لم يختبروا شيئًا عن الموت، ما زالت أفكارهم عنه بريئة، بالضبط كالأفكار التي يتوق لسماعها؛ فهم بالتأكيد لم يضطروا يومًا للنزول إلى قبرٍ في منتصف الليل لإخراج رجل حيٍّ منه.

«برأيكم، ما هو الموت؟»

بقيَ الجميع صامتين، لم يجب أحد، كان أحدهم يريد أن يقول: «أسوأ ما في الموت هو حزن الآخرين»، ولكنه بقيَ صامتًا، فلم يكن بالفعل في مزاج يسمح له بالنقاش.

«لا يمكنكم أن تبقوا صامتين! هذا هو موضوعنا اليوم، سيكون علينا جميعًا أن نجيب عن هذا السؤال.»

رنّ باب منزل أنور، أو منزل المرحوم أنور. فتحت «ماليزا» الباب. كان ذلك رامي. ليس هناك من داعٍ لأن تنادي سيدتها إلى الباب. دخل إلى المطبخ يطلب من «ماليزا» أن تحضر له شيئًا يأكله.

– آه، لقد أتيت؟

– لا لم آتِ، ما زلتُ على الطريق.

عانقته طويلًا متجاهلة دعابته المعتادة، ثمّ ذهبا ليجلسا بينما كانت «ماليزا» تحضر بعض الشطائر. جلسا صامتين أول الأمر. لم يكن من السهل أن يتمازحا كما اعتادا. كان رامي يريد أن يعبّر عن فرحته، ولكن قرار أنور يقضي بألّا تعلم سلوى أنه ما زال حيًّا. لم يعلم كيف يفتح موضوع الأغراض على الرغم من أنه ذكره مسبقًا.

أحضرت «ماليزا» الشطائر، وبدأ بالأكل فرحًا لأنه وجد سببًا وجيهًا للصمت. بعد أن انتهى، أشعل «سيجارة ما بعد الطعام»، ثمّ قال لسلوى: «هناك بعض الأوراق والأرقام. أنا بحاجة إليها كي أسوّي بعض الشؤون القانونية المتعلقة بوفاته».

– ما هي هذه الأوراق؟

لم يعلم بماذا يجيبها، ولكنّه تذكر ثقة سلوى العمياء به. «إنها في مكتبه، أعلم أين أجدها، ولكن أحتاج لهاتفه الجوال لآخذ منه بعض الأرقام».

دخل مكتب أنور وهو يحمل المفاتيح لكلّ الأدراج. أخرج الأوراق ووجد البطاقة المصرفية وكل ما يحتاجه. حين عاد إلى غرفة الجلوس، كانت سلوى قد أحضرت له هاتف أنور الجوال. ناولته إياه: «اِبحث عن الأرقام التي تريد».

عليه الحصول على جميع الأرقام، فهو لا يعلم لأيٍّ منها بالضبط قد يحتاج أنور. طلب منها أن تحضر له كأس ماء، على الرغم من وجود ماليزا. لم ترفض سلوى، وذهبت بنفسها كي تحضرها.

في ذلك الحين، قام رامي بوضع الشريحة الإضافية التي يحتفظ بها احتياطًا في حال خسارته الأرقام التي لديه. أفرغها ووضعها داخل جهاز أنور وبدأ بنسخ الأرقام الجديدة. ثمّ، وقبل أن تصل سلوى التي

لسببٍ ما أطالت البقاء في المطبخ، كان قد انتهى من نسخ الأسماء وقام بفكّ الجهاز ثانية ليعيد الشريحة القديمة.

كانت سلوى في المطبخ تتأمل خدشًا في الحائط سبّبته بانة حين رمت صحنها يوم أمس، ثمّ ولسببٍ ما، شعرت بأن رامي ليس حزينًا كفاية، لا سيّما وأنه لم يحضر صلاة الأسبوع الخاصة بأعز أصدقائه. تخيّلت لوهلة أن يكون بالفعل ما زال حيًّا. قد يكون ذلك أسوأ احتمالٍ في حياتها. بدأت بالبكاء من جديد، وهي تفكّر كم سيكون ذلك معقّدًا. فقد كانت على بعد خطوة من الخلاص من الجحيم الذي تعيشه مع أنور، تسعة أشهر فقط كانت تفصل بينهما وبين الطلاق. بمجرّد أن تنتهي امتحانات بيسان، كانت أيامها العصيبة مع أنور ستنتهي. تجاهله الدائم لها، إقصاؤها الدائم من الأسرة، منعاها من قضاء أي وقتٍ مميّز مع ملاكَيها الصغيرتين، كلّ ذلك كان على وشك أن ينتهي.

لم تصدق الفكرة الغريبة التي خطرت لها للتو: ماذا لو كان موته قد حصل بقرار منه؟ ماذا لو فعل ذلك فقط حتّى يجعل الأمور أكثر صعوبة وإرباكًا لها؟

ثمّ فكّرت في رامي الذي ينتظر كأس الماء منها في غرفة الجلوس. لماذا لم يتحمّل، مثلما فعلت هي، عواقب تلك الليلة لهما معًا؟ لماذا نجا هو بفعلته وهي لم تنجُ؟ تمنت لو أن أنور صرخ حينها وطلب تبريرًا فقط كي تحشر رامي في المشكلة وتجعله يتحمل بعضًا من الحمل الثقيل الذي تعاني كلّ يوم من تحمّله. ولكن لا، بدل أن يطلب تبريرًا، اكتفى بعقابها من دون محاكمة، اكتفى بنفيها من دون سفر... لا! لا تريد تذكّر المزيد. على هذا البكاء أن يتوقف الآن، عليها

أن تبحث بنفسها عن سعادتها، أن تستغل غياب أنور إلى الأبد لتعود من جديد إلى حياة ابنتيها التي غابت عنها لسنتين.

بعد أن توقّفت عن البكاء وعن استنفار الذكريات، غسلتْ وجهها واتّجهت بكأس الماء إلى رامي الذي كان يحمل في يديه الهاتف الجوال مفكّكًا. استغربتِ الأمر، بينما باغتها هو بتبريره قبل أن تسأل حتّى.

«أظنه قد تعطّل، أحاول أن أعيد تشغيله أو أن أنزع بطاقة الذاكرة.»

كانت تلك أول حجة راودته، ولكن يبدو أنها مرّت بنجاح.

جلست سلوى بقربه وهو يشرب كأس الماء الذي لا يرغب فيه أصلًا. بدأت تحدّثه عن أحزانٍ لم تعد أحزانه، وكلما أوشكت دموعها على الانهمار توقفت عن الحديث وخبأت رأسها بين يديها.

«تذكرت اليوم بداية قصتنا. بدأت من حفلة، فقط لو قلتُ له إنني متعبة ولا أريد الرقص لما كنتُ الآن في حزنٍ لا أجد دموعًا كافية له. هذا ما كنتُ أفعله عادة في الحفلات؛ الشاب الذي لا أعرفه لا أرقص معه بحجة التعب، ولكن أنور... كان في عينيه بريقٌ تصعب مقاومته. رقصنا وانتهى بنا الأمر وهو يعطيني بطاقته التي كانت صدمة بحد ذاتها، أن يحمل شابٌ بعمره بطاقة عمل خاصة به؟ لم يكن ذلك بالأمر المعتاد...».

وعادت لتضع رأسها بين كفّيها من جديد، ولكن هذه المرة لم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء. انهارت باكية من جديد، إلى أن وضع رامي سبابته على أسفل ذقنها ورفع رأسها كي تنظر إلى عينيه.

«سلوى، لا أقول لكِ ذلك كصديق أو كصديق أنور، ولكن كمحامٍ مرّت على رأسه مئات القضايا ومئات الحيوات التي تتحطم بسببٍ

الندم والتردد. أيًّا كان الأمر الذي يحصل... احزني على الماضي كما شئتِ، ولكن لا تندمي عليه.»

في تلك الأثناء، كان نزار قد وصل إلى «ركن الدين» واتصل بأنور الذي أخبره كيف يصل إلى منزله بموهبته القديمة في حفظ طرق الوصول إلى الأماكن ووصفها بدقة.

رنّ جرس الباب، ومرّ بعض الوقت قبل أن يفتح. بالطبع، كان يتأكد من خلال «العين السحرية» من هوية الطارق، كي لا يكون أحدًا ممّن يظنونه ميتًا. فتح الباب ودخل نزار ومعه الممرضة الشابة. لم يفهم بدايةً سبب قدومها، ولكنه لم يأبه كثيرًا ما دامت لم تكن حاضرة في جنازته. ثمّ تذكر أنه كان عليه أن يسأل رامي ربّما عمّن حضر جنازته كي يعلم ممّن عليه أن يحتاط.

«اعذروني، لن أستطيع أن أقدم لكم شيئًا تشربونه، المنزل لم يكن مسكونًا، وأنا لا أعرف شيئًا عن التسوق وعن تحضير المشروبات.»

كانت تلك مجرّد كذبة؛ فهو يوم أمس كان أحضر كلّ أنواع المشروبات والأطعمة التي يحتاجها من أجل طقوسه اليومية، إلا أنها كانت الطريقة المثلى ليتخلص من هؤلاء الضيوف غير المرحب بهم في أسرع وقتٍ، كان بحاجة ماسة ليبقى وحيدًا.

بدأ نزار بقياس ضغطه مستعينًا بالمساعدة الوهمية من ندى. أنهى فحوصاته وقرر أن يبدأ بإشباع فضوله.

– هل التقيت بأسرتك بعد؟

– لا ليس بعد. لم آخذ قرارًا بشأن ذلك. لا أظنني سألتقي بهم قريبًا.

– كلما كان وقت لقائك بهم أقرب، سهّلت الأمر عليهم أكثر. ليس من الجيد أن يطول هذا الوضع كثيرًا.

– أعلم، ولكن ليس الأمر بهذه السهولة. عليَّ أولًا أن أتخلص من صدمتي قبل التفكير بصدم الآخرين.

– كما تشاء، ولكن مع كلّ موتٍ يكون لدى من يحبون هذا الميت بعض الأمل... بعض الوهم بأنه ما زال حيًّا، من الأفضل أن تعود إليهم وهم ما زلوا يملكون هذا الأمل أو الوهم.

لا بأس بما وصل إليه نزار حتّى الآن، لم يكن بإمكانه البقاء كثيرًا؛ فهو لم يرد التطفل على حياة غيره. لم تكن قصة أنور بالنسبة إليه أكثر من حدث مثير يرغب بزيادة معرفته حول رواية يحاول أن يستخلص منها العبر.

خرج نزار وقد أشبع الجزء الأعظم من فضوله عند أنور، ووصل مع ندى إلى السيارة. فتح الباب الأيمن لها والتفّ إلى الجهة الأخرى كي يصعد. وقفت ندى قليلًا قبل أن تصعد، وحين أصبح نزار في السيارة بادرته بالقول وهي تمدّ رأسها إلى داخل السيارة: «لن أذهب معك، منزل صديقتي قريب من هنا، سأستغل الفرصة وأمر عليها».

«الموت هو انتهاء الوقت الذي منحنا إياه الله لنحدث تغييرًا في العالم.»

صدمه الجواب. لم يتوقع الأب نقولا جوابًا كهذا من شبان صغار، لم يتوقع أن يكون أحدهم قد بدأ بالتفكير في إحداث تغييرٍ في العالم، حتّى هو، من موقعه القائم على إحداث التغيير نحو الأفضل، لم يفكر يومًا في أنّ حياته هي مهلة للتغيير.

أثناء خروجهم، سمع أحدهم يقول ما لفت انتباهه. كان أحد شبّان الفرقة، واسمه كنان، قد طلب من الباقين أن يجتمعوا حوله بصفته رئيسهم قبل أن يغادروا.

«علينا أن نذهب لنعزّي بيسان بوفاة والدها. لقد هدأ وضع المنزل قليلًا، وبات الوقت مناسبًا لنزورهم. من الأفضل لمن لم يعزّوها في الكنيسة أن يأتوا معي هذه المرة.» لم تكن بيسان عضوًا في فرقتهم، فهي أصغر منهم بسنتين، ولكنهم كانوا على علاقة جيدة بها بحكم العلاقة التي تربطها بكنان.

تذكّر الأب نقولا أن رامي ذكر هذا الاسم من بين أسماء عائلة أنور. هل يعقل أن أنور كان من الأشخاص القريبين إليه؟ فمن الواضح أن ابنته في مدارس الأحد التي يشرف عليها بشكل شخصي في كنيسته.

سأل الأب نقولا كنان عمّن هو المتوفى في عائلة بيسان.

«توفي والدها بأزمة قلبية. لا بد أنك تعرفه، هو تاجر عقارات اسمه أنور النجار. ساعد البطريركيّة عدة مرات في شراء الأراضي التي يقيمون عليها الكنائس أو مراكز التخييم الجديدة.»

راودته رغبة كبيرة في الذهاب إلى منزله ورؤية عائلته. أراد أن يعلم ما الذي تخلى عنه أنور بعد رجوعه من الموت. لم يعلم إن كان سيبدو متطفلًا إن طلب الذهاب معهم، ولكن بعد لحظة تذكر أنه كاهن ولا أحد يجرؤ على التفكير به كمتطفل أساسًا. كان يريد بشدة أن يعلم كم هي سيئة عائلة أنور كي يتخلى عنها بهذا الشكل الغريب، أو ربّما كم هي جيدة كي لا يرغب في إزعاجهم بعودته المريبة من الموت.

«سأذهب معكم إن شئتم، أنا أعرفها وأود أن أعزّيها أيضًا. لم أعلم من قبل أن والدها قد رقد.»

بعد نصف ساعة، كان كنان واقفًا في الشارع الضيّق الذي اعتاد أن يلتقي بيسان فيه، منتظرًا وصولها. لم يعد يطيق صبرًا حتّى يراها. أراد أن يحكي لها عن الأفكار البلهاء التي تراوده كلّ دقيقة، إلا أن الوضع مختلف عن أي وضعٍ اختبراه قبلًا. لم يكن باستطاعته أن يخبرها عن جدلياته التي يستمتع بطرحها.

كانت قد عاينت والدها ميتًا منذ عدة أيام، ولم يكن يتوقع أن يراها قبل مرور شهر ربّما على وفاته، ولكنها فاجأته بطلبها أن تراهُ، وهو لم يمانع ما دام ذلك لن يسبب أذى لأيٍّ منهما.

رآها قادمة من بعيد، كان مظهرها غريبًا بالأسود الذي ترتديه، فقد اعتاد رؤيتها إما باللونين الزهري والرمادي اللذين ترتديهما للمدرسة، أو باللونين الأحمر والأخضر الداكن اللذين يحتلان دائمًا وعلى التوالي معظم ملابسها.

كانت تسير نحوه ببطءٍ كأنها لم تشتق له. بقي واقفًا منتظرًا وصولها. لم يكن يطيق صبرًا حتّى يلمسها. هكذا هو الحب كما يعرفه. حتّى معاركه تحصل بهدوءٍ مميت.

وصلت أمامه، لم يكونا معتادين المصافحة، إذ كان عادة يقبّل وجنتها اليسرى، وهو يحيط خاصرتها بذراعه. حاول أن يبقى على عادته لولا أنها باغتته وعانقته. لم يكن له سوى أن يُحيط ظهرها بيدٍ واحدة ويضّمها أكثر إليه، فيما أمسكت يده الأخرى بيدها. كان يسمع صوت أنفاسها وهي تحاول أن تشتمّ رائحته. لم يحتج هو أن يستنشق ليفعل ذلك، فشعرها الكثيف كان يملأ أنفه بعبيرها.

انتهى العناق، فدسّت يدها في ذراعه ودفعته للسير. «بسرعة قبل أن يقبضوا علينا.» كانت تلك الجملة التي يرددانها في كلّ مرة يتعانقان فيها في الطريق، ويقصدان بها شرطة الآداب التي يسمعون

الكثير من قصصها، ولكن لم يصطدموا بها يومًا. وكان كنان يحاول دائمًا إقناعها بأنه لا وجود في سوريا لشرطةٍ تعتقل حبيبين لمجرّد عناقهما، ولو كانت موجودة فعلًا، لكان نصف سكان سوريا في السجن اليوم.

«لن تصدق كم كنت محتاجة أن أراك. المنزل واقع في هدوءٍ لا مثيل له. قبل أن أخرج، زارنا رامي، صديق أبي. أمي تحاول أن تزيد الأمر مأساوية، وأختي تجعل من الأمر أكثر روحانية كلّ يوم، وأنا، رغم حزني، أحاول أن أرضى بالأمر الواقع. فقد شاهدت الكثير من الأسر التي مات أحد أفرادها، وأقسم لكَ إنّ أحدًا منهم لم يعد من الموت بسبب الاجتهاد بالبكاء، إلا أنني لاحظت أمرًا غريبًا...»

فكّر كنان: إنّ والدها قد توفي. بالطبع ستلاحظ الكثير من الأمور الغريبة في الأيام القليلة القادمة. الموت يُخرِج كلّ الأمور السيئة والجيدة من داخلنا. ولكن، حين تابعت حديثها تبين أن ما تتحدّث عنه هو أمرٌ غريبٌ من نوع آخر.

– حصل أمران في نفس التوقيت تقريبًا؛ فيوم أمس راودت أختي «القديسة» رؤيا بأن والدي ما زال حيًا. أمرٌ صدّقته لدرجة أنها ظلّت مبتسمة معظم الوقت خلال الصلاة. كذلك تقبّلت التعازي ببعض السخرية الواضحة على وجهها، إلى أن عادت إلى المنزل واتصلت بأبيها الروحي المعتوه، الذي لا أدري أيّ ترهات قد أخبرها. أما الأمر الآخر، فهو زيارة رامي اليوم؛ من الغريب أن يطلب أوراق أبي بهذه السرعة، كذلك فإنه أخذ الكثير من الأوراق التي لا أعتقد أنه يحتاجها. أمورٌ تثبت ملكيات والدي، ونحن لم نطلب حصر الإرث بعد. أضف إلى ذلك أنه كان شديد البرودة، على عكس اليوم الذي توفي فيه والدي. حتّى حين كانت أمي تبكي أمامه، لم يكن يبدي

تعاطفًا كبيرًا، رأيتها تعانقه وتبكي، في حين أنه كان يشيح بنظره إلى الساعة على الحائط.

– ما الذي تحاولين قوله؟ والدك ما زال حيًّا؟

– لا... لم أصل إلى هذه الدرجة من الأمل بعد. أختي نعم، وربّما رامي أيضًا قد فعل، لكن هناك أمرٌ غريب يجري تحت الطاولة، ولا بد من اكتشافه. ماذا تعتقد أنتَ؟

– هل كنتِ حاضرة في دفنه؟ هل رأيته يدفن؟

– نعم بالطبع. ليس بالضبط، فالنساء لا يذهبن كما تعلم، ولكن لا يمكن أن يتآمر أكثر من مئتي رجل كي يهربوا به من المقبرة.

– هل كان التابوت مفتوحًا وأبوكِ فيه؟ وتأكدتِ أن التابوت الذي نقل إلى القبر هو نفسه؟

– نعم متأكدة من كلّ ذلك. وتوقف عن محاولة إثبات أنه حيّ، قلتُ لكَ إن ذلك ليس احتمالًا بالنسبة إليّ بعد.

– حسنًا إذًا، فيمَ تفكرين؟

– رامي! هو شخصٌ محنَّكٌ جدًّا، لا بد أنه ينوي على شيءٍ ما. ربّما كان يحاول الحصول على شيءٍ من ميراث أبي، منزلٌ لا نعلم أن أبي يملكه أو شيءٌ من هذا القبيل؛ فكثيرًا ما كان أبي يشتري عقاراتٍ من دون إعلامنا بها.

– هل جربتِ التحدث مع والدتك في الموضوع؟

– طبعًا لا. فأولًا، كان رامي لا يزال في المنزل حين خرجتُ منه. وثانيًا، هي مثل أبي، تثق ثقةً عمياء بهذا المحامي. لن تفكر في التحقق من كلمة مما أقوله.

– هل تودّين أن أقوم أنا بالتحقق؟

– كيف؟

– أراقبه مثلًا أو أدّعي أنني....

– لا. أرجوك لا تفعل شيئًا يحرج أسرتنا أمام الآخرين.

– حسنًا كما تشائين، لن أفعل إلا ما تريدين أن أفعله. أين تريدين الذهاب الآن؟

– أي مكانٍ لا يراني الناس فيه ويقولون: «توفي والدها ولم تطق صبرًا كي يمر الأسبوع - الوهمي طبعًا - حتّى تقضي وقتًا مع حبيب القلب.

– لكِ ذلك...

ذهبا إلى المقهى الذي يذهبان إليه عادة للسبب نفسه الذي ذهبا من أجله اليوم. إنه في مكانٍ لا يراهما فيه أحد.

سارت ندى في الطريق نفسه الذي خرجا منه. صعدت على درج البناء. وصلت إلى الباب الذي دخلا منه منذ قليل. رنّت الجرس ووقفت أمام «العين السحرية». فتح أنور الباب بعد مرور بعض الوقت، ونظر إليها.

«هل نسيَ شيئًا من أغراضه هنا؟ لا أذكر أنني وجدت شيئًا بعد أن...»

هزّت رأسها موافقة، ودخلت مبعدة يده التي كانت لا تزال تمسك الباب. جلست على الأريكة في غرفة الجلوس منتظرة لحاقه بها.

«أنا من نسيتُ أحد أغراضي، وليس هو.»

نظر حوله فلم يجد أي شيءٍ يعود إليها، كذلك فإنه لا يذكر أنها استعملت الحمّام حتّى تكون قد نسيت أحد أغراضها النسائية فيه. لم ينطق بشيءٍ، وظل منتظرًا أن تتكلم هي وتكشف عمّا نسيتْ.

«إنه فضولي! لقد سمعت في المستشفى كلامًا عن قبرٍ وموت وأشياءَ من هذا القبيل. أردت فقط أن أعلم المزيد عن قصتك إن لم يكن لديك مانعٌ بالطبع...»

بدأ الأمر الذي كان يخشاه بالحصول، الفضوليون. إن سبق له أن كره شيئًا في حياته، فهو الفضول. لطالما خسر أموالًا بسبب الفضول والأفعال الغبية التي يقود إليها.

– ماذا تريدين أن تعرفي؟ ليس في قصتي الكثير لتعرفيه.

– كلّ شيء، إن لم يكن لديك مانع.

– اعتقدوا أنني ميت، وتبين أنني لم أكن ميتًا. وأنتظر قليلًا لأكشف عن الأمر كي لا تموت أسرتي التي أحب بدلًا مني. النهاية! أي شيءٍ آخر؟

– معظم ما قلته أعرفه. أريد أن أعرف عنك أنتَ، من تكون؟ من هم أسرتكَ؟ أودّ أن أساعدك لو شئت.

– تساعدينني؟ حسنًا! بصراحة الشيء الوحيد الذي بإمكانك أن تساعديني به هو أن ترحلي قبل أن أبدأ بالغضب بسبب فضولك، واعلمي أنّ تاريخي مع الفضوليين ليس بجيّد.

– نعم أساعدك. هناك أمرٌ واحد لا يمكن لرجلٍ أن يعيش من دونه. وبما أنك بعيدٌ عن أسرتك وزوجتك خصوصًا، فلا بد وأنك تعيش من دونه.

فهم حينها أنها تتكلم على الجنس، وكان قد اعتاد هذا النوع من النساء في شبابه بحكم حالته المادية الجيدة و«بريق عينيه» الذي كانت تصفه الكثير من النساء، ومن بينهن زوجته، بأنه «لا يقاوم».

سار نحو باب المنزل وفتحه مشيرًا لها بالخروج. لم تستطع تحمّل الإهانة، بل أكثر من ذلك، لم تستطع تحمّل الهزيمة، ولكن

لم تجد أمامها خيارًا آخر سوى الرحيل. خرجت ونزلت الدرج جارّةً أذيال الخيبة وراءها. سارت باتجاه الشارع العام وركبت في أول سيارة أجرة صادفتها. رحلت وهي تفكّر في طريقة جديدة تحمله فيها على الاستسلام لها. كثيرون يرونها عاهرة تبحث عن الرجل، ولكنها كانت - من وجهة نظرها - مجرّد فتاة لديها أسبابها الخاصة لممارسة الجنس بشغف.

رافق كنان بيسان إلى منزلها. أرسل إليها قبلة في الهواء. ذلك كان أكثر ما يمكن القيام به بوجود جارتها على الشرفة تراقب جميع الداخلين والخارجين إلى البناء.

وصلت إلى المنزل، ودخلت بهدوء، رغم أن الوقت كان لا يزال مبكرًا. كان رامي قد ذهب، وكانت أمها جالسة في مكتب والدها. فتحت باب غرفة بانة بهدوء، فوجدتها نائمة والإنجيل غافٍ على صدرها. تناولته لتغطي أختها الصغرى، ومن باب الفضول، لم تغلقه، أرادت أن تعرف الجزء الذي تقرأه بانة، وكان غريبًا.

«...فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعًا...»، ومرّت بنظرها سريعًا على الجمل التالية، وقد سرت القشعريرة في جسدها. ثمّ استقرّت عيناها على: «... ولما قال هذا صرخ بصوتٍ عظيم لعازر هلم خارجًا! فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطاتٌ بأقمشة ووجهه ملفوف بمنديل...»

علمت من الابتسامة المرتسمة على وجه أختها الصغرى أنها ما زالت متمسكة برؤياها ومتأكدة أن والدها حيّ يرزق. وبيسان كانت تعلم أنه ما من طريقة لحمل هذا الملاك الصغير على التزحزح عمّا

يؤمن به. لذلك قرّرت أن تتوقف عن محاولة دحض أفكارها. ليس مهمًّا إن كانت تؤمن بما هو صحيح، المهم أن تؤمن بما سيجلب لها السعادة؛ فهي الوحيدة التي تصغرها سنًّا في هذا البيت والوحيدة التي سبق لها أن شعرت بالمسؤولية تجاهها.

سار كنان باتجاه سيارته التي تركها قريبًا من منزل بيسان قبل أن يذهبا إلى مقهاهما المفضل. أخرج هاتفه ليتصل بأخيه. لا يستطيع الوثوق بأحد غيره في الخدمة التي يريد. فأخوه محامٍ ويستطيع ربّما إفادته في الحصول على معلوماتٍ عن رامي، وخصوصًا أنه يسعى دائمًا إلى معرفة أكبر قدرٍ من المحامين كي يظل على اطّلاعٍ على الأحكام التي تصدر ليستفيد منها في مرافعاته.

«مرحبًا. كيف حالك؟ لا لستُ في المنزل بعد. اسمع هناك محامٍ أريدك أن تعرف لي مكان عمله أو مكان إقامته، اسمه رامي أمين... مسألة شخصية تتعلق ببيسان. شكرًا لكَ. أسرع قدر ما استطعت.»

صعد في سيارته وشغّلها وانطلق إلى منزله مسرعًا كي يكون جاهزًا إذا اتصلت به بيسان.

قصد رامي أنور الجديد. فتح له الباب فوجده يصنع الشاي، ويحضّر مائدة صغيرة من المعلّبات التي اشتراها يوم أمس. كان مظهره مزريًا يذكّره بأيام خدمة العلم. طلب منه أن يرتدي ملابسه كي يخرجا ويتناولا العشاء في مطعم ما.

صعدا في سيارة رامي. كان عليهما أن يفكرا في مكانٍ ليأكلا فيه بعيدًا عن سكن أنور. وصلا إلى مطعمٍ في أبو رمانة ليتناولا العشاء.

بعد أن طلبا الطعام، أراد أنور أن يستفسر عن التحرّش الذي تعرّض له اليوم:

– أنتَ أعطيتَ رقمي للدكتور نزار؟

– نعم. لماذا؟ هل حصل شيءٌ ما؟

– لا، أتى اليوم ليفحصني، وبعد أن ذهب عادت مساعدته إليّ وحدها.

– لماذا؟ ماذا أرادت؟

– دعني أستخدم كلماتها: «الشيء الذي يحتاجه الرجال دائمًا وأنا محروم منه لأني بعيدٌ عن زوجتي».

– لستَ تتكلم علمًا أعتقد أنك تتكلم عنه، أليس كذلك؟

– بلى، حتّى بعد أن متُّ ما زالت النساء يرتمين عليّ.

– بدأت فكرة الموت تصبح مسلية. أليس كذلك؟

– نعم. أظن.

حضر الطعام وبدآ بالأكل. لم يكن رامي جائعًا بالفعل. لم يمرّ وقتٌ طويلٌ منذ أكل عند سلوى. أما أنور فكان يأكل بشراهة مع محافظته على لباقته المعتادة. كان يفتقد حياته المرفّهة التي اعتادها، كان يشعر للحظات بأنه يفتقد تلك الآسيوية التي تعدّ له العشاء والقهوة وتكوي ملابسه. ربّما كان يشتاق إليها أكثر مما يشتاق إلى سلوى نفسها.

– كيف حال سلوى والفتيات؟ هل رأيتهنّ اليوم؟

– نعم، سلوى ليست بأفضل حالاتها. بدأت اليوم تعود بالذكريات. تخيّل أنها بدأت تندم لأنها وافقت على أن ترقص معك في الحفلة في أول لقاء لكما منذ ثلاثة وعشرين عامًا.

– أؤكد لكَ أنها نادمة على ذلك النهار من قبل أن أموت حتّى.

لم يعلّق رامي؛ فهو، منذ حصل ما حصل له مع سلوى، يحاول ألا يناقش علاقة سلوى وأنور كي لا تقود الشكوك إليه في القضية المسجلة ضد مجهول حتّى الآن. كان مترددًا أيضًا في إخباره عن حالة بانة؛ فهو يعلم أن ما يحصل معها يتعارض مع رغباته الغريبة. أخيرًا، قرر أن يخبره.

«أما بالنسبة إلى بانة، فهي بألف خير. كانت سعيدة اليوم في صلاة الأسبوع خاصتك...»

نظر أنور مستغربًا. لم يفهم ما الذي يعنيه، ولكنه كان خائفًا من أن تكون قد علمت شيئًا من الحقيقة. أمال له رأسه طالبًا الشرح.

«يبدو أن الرؤى التي تراودها لم تنتهِ برشوتك للكاهن، فقد راودتها رؤيا يوم أمس تفيد بأنك ما زلتَ حيًا، وهي واثقة تمامًا بما رأت وترفض حتّى أن تحزن لموتك. يبدو أن رؤاها كانت صحيحة في النهاية.»

ربّما كانت الصدمة حيال صحة رؤى بانة أشد وقعًا على أنور من صدمته في أن تكون ابنته تعلم أنه ما زال حيًّا. فهو، منذ فقد إيمانه بالله منذ ستة عشر عامًا، لم يعد يصدّق أي شيء يتعلق به، ولو رآه بأمّ عينه.

لم يكن يتوقّع أن يحصل ذلك سريعًا؛ ولكنه فجأة اتخذ قرارًا بأنه يريد رؤية عائلته. لم يعلم إن كان ذاك اشتياقًا أو استسلامًا، ولكنه أراد أن يعانقهن طويلًا، أراد أن يتشارك السرير مع سلوى من جديد بعد الانقطاع الذي دام ثلاث سنوات.

احتفظ بقراره لنفسه حتّى يفكّر فيه أكثر. هربت دمعة من عينه، مسحها ليعلن - على الأقل لنفسه - نهاية لحظات سيطرة العاطفة عليه.

«هل أحضرتَ ليَ الأوراق التي طلبتها منكَ؟»

علم رامي أن ما رآه هو مجرّد جزءٍ بسيط ممّا يعتمل داخل أنور. ولكن، على الرغم من ذلك، بقي غير فاهمٍ لتلك الرغبات الغريبة التي تراود صديقه، والتي - كما كان متأكدًا - ستتكشّف لوحدها في ما بعد.

«نعم، إنها في السيارة. سأعطيك إياها حين نخرج من هنا...»

«وكان أليعازر جالسًا، تعبًا، متكئًا، في الركن الأشد ظلمة من بيته، لأن النور كان يزعجه. وكانت ساقاه، وذراعاه، وبطنه متورمة وخضراء اللون، مثل جثة ميتة مضى عليها أربعة أيامٍ. وكان وجهه المنتفخ مشققًا كله ويتحلب سائلًا أبيَضَ مائلًا للصفار لوث الكفن الأبيض الذي ما زال يلتف به؛ كان ملتصقًا بجسمه ويتعسر نزعه. في البداية كان يفوح برائحة فظيعة وكان على كلّ من يقترب منه أن يسد أنفه، لكن الرائحة الكريهة أخذت تخفُّ شيئًا فشيئًا، إلى أن أصبح الآن لا يشتم منه إلا رائحة التراب والبخور. وكان بين الفينة والأخرى يحرك يده وينتزع العشب المتشبك بشعره ولحيته. وكانت أختاه مرتا ومريم تنظفانه من التراب ومن دود الأرض العالق به.»

نيكوس كازانتزاكيس
الإغواء الأخير للمسيح

السبت 17 تشرين الأوّل 2009

استيقظ أنور باكرًا. أعدّ قهوته بنفسه على غير ما اعتاد، وبدأ بتقليب الأوراق التي حصل عليها من رامي. كان يريد التأكد من أنه أتمّ إجراءات بيع وشراء جميع المنازل التي لديه. ولمّا فرغ من الأوراق، ارتدى ملابسه وخرج سيرًا - كما يحبّ أن يفعل عادة - إلى الطرقات القريبة من منزله. وقف عند أوّل صراف آلي وسحب بعض النقود. وحين صادف أوّل مطعمٍ دخل ليتناول فطوره.

رنّ هاتفه؛ كان رامي يتصل به.

– هل استيقظتَ؟

– لا ما زلتُ نائمًا وأحلم باتصالك حاليًا.

– أليس بإمكانك أن تقول نعم وحسب؟ أين أنتَ الآن؟

– في مطعم في المزرعة، أتناول فطوري. هل لديك عملٌ اليوم أيضًا، أم أنك قررت أن تصبح طبيعيًّا وتأخذ يوم السبت عطلة؟

– لا ليس لدي عمل. سأمرّ عليك عند الظهيرة أو بعد ذلك بقليل.

– حسنًا ولكن اتصل بي قبل أن تأتي؛ قد لا أكون في المنزل.

– حسنًا، سأفعل...

كان كنان ذاهبًا إلى باب توما لتناول الفطور مع أصدقائه من الجامعة، حين اتصل به أخوه... أسرع ممّا توقع.

«هذا المحامي الذي سألتني عنه يعمل مستشارًا قانونيًا لعدة شركات كبيرة، ويمثلها في المحاكم. هو ربّما من أكثر المحامين دخلًا في سوريا. يسكن في منطقة القصور، منزله مجاور لمدرسة يوسف العظمة في البناء ذي المدخلين. لا بد وأنك تعرفه، إن لم تكن تعرف شكله، فبكل بساطة هو شابٌّ في منتصف الثلاثينيات، يبدو أوروبيًا شرقيًا أكثر منه سوريًا.»

كانت المعلومات التي حصل عليها كافية تقريبًا، على الرغم من أن حماسته لمراقبته ومعرفة لغزه تقلصت عن يوم أمس. لكنه قد يعاود التفكير في الموضوع بعد أن ينهي فطوره.

في منزل «المرحوم»، كانت سلوى شاردة بانتظار استيقاظ فتاتَيْها. تذكرت كلّ اللحظات الجميلة مع أنور، كلّ قبلة سرقها منها قبل أن يتزوجا. تذكرت الليلة التي فقدت فيها أغلى ما تملكه فتاةٌ شرقية. يومها لم يستطيعا مقاومة شكل السرير في غرفة نومهما التي ستحضنهما ليلة الزفاف، بعد عشرة أيام فقط. بدت الأيام العشرة طويلة جدًّا، بدت كسنة أو كعشر سنوات. تذكرت أين وصلت بهم الحال الآن، وكيف أنهما كانا ينتظران حصول بيسان على الشهادة الثانوية حتّى يتطلقا.

عاد لذاكرتها ما حصل منذ أسبوعٍ فقط. عيد زواجهما الذي أقامه من أجل تسيير بعض أعماله. فهو كان ينوي أن يحوّل عقاراته إلى رأس مالٍ يدخل به في مشروع جديد، عقاري أيضًا، ولكنه يدرّ أرباحًا أكبر.

الابتسامات المصطنعة والمجاملات السخيفة، النخوب الرومانسية التي اقترحها كلّ منهما وعبارات الغزل المتوالية طوال السهرة، كلها عادت لذاكرتها كما لو أنها تدور الآن أمام عينيها. رأت الضيوف في صالونها وعلى أرائكها، القبلة التي طبعها على خدها وهو يهمس في أذنها عبارة غزل فريدة من نوعها... «هل بإمكان ابتسامتك أن تكون من المعدن بدل البلاستيك؟»

فجأة عادت بها الذاكرة إلى الخلف من جديد. تلك الذكرى بالذات لم تكن تريدها أن تعود. تلك الحكاية بالذات لم تكن تريد أن ترويها لنفسها من جديد. لم تعد تريد أن تتجول في السنين ذهابًا وإيابًا، لم ترد ذلك وحسب.

لكن الآن بالذات تعود تلك الحكاية إلى السطح من جديد. كانت هي وأنور في السنة السادسة عشرة من زواجهما. مرت المراحل اللطيفة من الزواج. عمل أنور يزداد يومًا بعد يوم، كمية العمل هي نفسها، ولكنه بات يبالغ في قضاء الوقت في مكتبه الذي بالكاد يحتاج له أساسًا في عمله بالوساطة والتجارة بالعقارات. كان يتذرع بعمله الذي يعرف أن زوجته لا تفقه منه شيئًا، كي يبتعد عن المنزل. كان يريد حياة كالتي عاشها في شبابه. شعر بالندم لأنه تزوج سريعًا، شعر بالندم لأنه لم ينتظر حتّى يملّ من المرح.

من ناحيتها، شعرت سلوى يومًا بعد يوم بابتعاده عنها، لكنها لم تكن تجرؤ على أن تكلمه في الموضوع. كانت تعلم أن العمل هو مجرّد حجة فقط حتّى يبقى بعيدًا عن المنزل، بعيدًا عن أسرته. أمضى سنة كاملة من دون أن يمارس الجنس معها، من دون أن يقبّل وجنتيها في الأعياد على الأقل. يصطنع عيدًا صغيرًا لها في مناسبة عيد ميلادها،

يصطنع حفلة مع الفتاتين كي لا يكونا وحدهما؛ فهو لم يعد يريد أن يكونا عاشقين. كانت ترى ذلك في عينيه كلّ يوم.

بعد مرور شهورٍ على هذا النحو، بدأت المشاكل بالظهور. يختلفان على كلّ شيء: دراسة الفتاتين، كيّ الملابس، الصنف الذي تختاره للغداء، أي كلمة تقولها عند زيارة الأصدقاء. بدأت المشاكل تزداد. ولكن الغريب هو أنه بدأ بالتقرب من فتاتيه أكثر من المعتاد، بدأ يهرب منها آخذًا معه العائلة.

كانا، كلما تشاجرا، يرسل إليها صديق العائلة - وصديقه الشخصي قبل أن يكون صديق العائلة - ليهدئها، من دون أن يتكلّف عناء الاعتذار منها أو ذكر المشكلة بعد انتهائها.

كان أكثر ما يزعجها هو ثقته العمياء برامي وبها. كلا، تلك لم تكن ثقة. ما يزعجها هو أنها لم تكن ثقة، بل كانت استخفافًا بأنوثتها مشبعًا بالتّخلي. فهي، بالنسبة إليه، ليست أنثى، ليست امرأة يحبها. كان كمن يقول لها «اقضي الوقت مع الرجل الذي تريدين، لا أبالي، ليأخذوكِ لو شاؤوا».

كان في الكثير من المرات يخرج من المنزل ويتركها وحيدة مع رامي، غير آبهٍ على الأقل لكلام الناس من حولهم. استفزها الأمر كثيرًا، فقرّرت أن تعلّمه ألا يهمل ما يملك. كانت الطريقة الوحيدة لإعطائه درسًا، هي في جعله يشعر بأنّ ماله الذي تركه على الرّصيف قد سُرقَ حتّى يتوقف عن تركه سائبًا من دون مراقبة.

بدأت بمحاولة إثارة غيرته وشكوكه عبر تظاهرها بتناول حبوب منع الحمل، على الرغم من أنها لا تمارس الجنس معه، وعلى الرغم من أنها قد تقدّمت في السّن وقد مرت بالحمل والولادة مرتين ولا

يمكن أن تكون تستخدم تلك الحبوب لتنظيم دورتها الشهرية. كانت تكتفي برميها في الحمام من دون أن تتناولها. كان ذلك كافيًا، في حال مراقبة أنور الحبوب، حتّى يكتشف أنها تنقص كلّ يوم حبة.

لم يكن يحضر في المنزل كفاية كي يرى تلك الحبوب. وحتى حين يكون موجودًا، كان يقضي معظم وقته في القراءة أو في غرفتَي بيسان وبانة، لا يأبه للوقت الذي تنوي النوم فيه. يدخل قبلها أو بعدها، لا يهمّ، يتركها أحيانًا ساهرة وحدها أمام التلفاز، أو يتركها تنام وحدها على السرير، ويتعمد في كثير من الأحيان أن ينام في غرفة الجلوس.

إلى أن جاء نهارٌ لم تعد تقوى على التحمل. طلبت منه أن يتكلما، ولكنه تذرّع بأنه بحاجة لإجراء اتصالات مهمة، وأنّ عليه أن يخرج بعدها مع رامي من أجل عقود لا بد من تجهيزها قبل نهاية الأسبوع. رفضت هذه الحجة التي كانت تعلم أنها كجميع حججه في الأشهر الأخيرة: وهمية...

«لا، لن تتصل بأحد، ولن تخرج مع رامي. ستبقى هنا، وعلينا أن نتكلم قبل أن ينهار هذا المنزل فوق رؤوسنا. عليكَ أن تقف وجهًا لوجه معي وتخبرني ما الذي أخطأتُ فيه كي تعاملني هكذا، لا يمكنك أن تستمر في الهروب. أنتَ زوجي، وسنقضي بقية حياتنا معًا. لا يمكن تأجيل المشاكل دائمًا.»

لم يجبها، وإنما اكتفى بأخذ محفظته وخرج من المنزل مسرعًا. جلستْ على السرير وبدأتْ بالبكاء، تحاول أن تكتم صوت بكائها وتبقيه منخفضًا كي لا تسمعها الفتاتان. بقيت ساهرة بانتظاره، ولكنه لم يأتِ وهي مستيقظة. استسلمت للنوم، وحين استيقظت كان قد طفح بها الكيل من أفعاله.

لم تجد أحدًا من العائلة في المنزل، كلّ ما وجدته هو ورقة ترك لها عليها ملاحظة بأنه أخذ بانة وبيسان وذهبوا إلى المنزل الصيفي في الوادي. لم تصدق أن تهرّبه من حل المشاكل قد يصل إلى هذا الحدّ، وقررت أن تفعل ما كانت تهدّد به بشكلٍ غير مباشر منذ شهور. اتصلت برامي وطلبت منه القدوم. كان سيأتي بنيّة طيبة كي يخفف عنها، كي يصلح ما أفسده أنور كعادته. ولكن هذه المرة لن تدع الأمور تقف عند هذا الحد، لن تسمح لأنور بالفرار بفعلته.

اكتشفت سلوى أنها شطحت بذكرياتها كثيرًا وقررت التوقف عند هذا الحد. هربت من ذكرياتها إلى غرفتَي بيسان وبانة. قبّلت كلّ منهما على وجنتها وهما نائمتان وقررت أن تبدأ بالعودة إلى حياتهما، وباستدراك ما فاتها في السنوات الأخيرة.

كان رامي في غرفة الجلوس في منزله، يعمل على حاسوبه المحمول، بينما صوت فيروز يصدح بجانبه.

«حبيبي ندهلي. قلي الشتي راح، رجعت اليمامة وزهّر التفاح... بعيونك ربيعي نوّر وحلي...»

فتح بريده الإلكتروني، فلم يجد فيه شيئًا مثيرًا للاهتمام. بحث في أخبار بعض المواقع ولم يجد شيئًا يثير الاهتمام أيضًا.

رفع سماعة الهاتف واتصل بسلوى. رنّ طويلًا قبل أن تردّ. لم يكن يعلم ما الذي عليه بالضبط أن يفعله مع هذه المسكينة، هل يطلب منها أن تنسى أنور؟ ماذا لو نجحت بالفعل في نسيانه؟ ماذا لو عاد أنور إليها في وقتٍ ما بعد نسيانها له؟ أين سيعود وهي قد نظفت مكانه وأخلته وأقفلته؟ هل يحافظ على ذكراها ووفائه لها؟ ماذا

لو استمر صديقه بهذا الجنون؟ ماذا لو لم يعد؟ هل على سلوى أن تحتمل هذا الجنون؟ هل عليها أن تصبح أرملة وزوجها حيٌّ؟ ماذا لو كانت أقوى من الحزن والمجتمع وقررت الزواج؟

تزاحمت الأسئلة في رأس رامي. أراد أن ينتشل سلوى من الحزن والخوف الذي تعيشه. حصل كلّ ذلك بظرف ثوانٍ وهو ينتظر أن تردّ على الهاتف. أخيرًا...

– صباح الخير.

– «بونجور».

لم يكن قد اعتاد - وكذلك أنور - هذه الكلمة التي تصرّ على استخدامها ردًّا على تحية الصباح. مهما كانت هذه التحية، لم يولِ الأمر أهمية كبيرة.

– هل استيقظتِ الفتاتان؟

– لا ليس بعد. مرّتا بنهار متعب يوم أمس، لن أوقظهما قبل الغداء.

– جيد... دعيهما ترتاحان، هل ستبقين في المنزل اليوم؟

– نعم، لماذا؟

– أنوي المرور بكِ.

– أهلًا وسهلًا، وهل تحتاج اتصالًا لتفعل ذلك؟

– لا! لا أحتاج إلى الاتصال، ولكن أحتاج بنزينًا. أودّ ألا أصرفه هدرًا إن لم تكوني في المنزل.

.

دخل غرفته وأطفأ الأنوار. أشعل شمعتين وتربّع على الأرض. بدأ جلسة التأمل. كان قد بدأ يمارس اليوغا منذ نحو سنة، ولكن لسببٍ مختلف عمّا يجعل أرستقراطيّي دمشق يمارسونها.

أخذ يتخيّل جدارًا أبيض أمامه، محاولًا طرد المنظر الذي رآه منذ عدة سنوات مضت: قطرات العرق الذي انهمر من سلوى، ونظرات أنور. بقي يتأمل جداره الأبيض، لم يكن أبيض تمامًا، لطّخته الكثير من الدماء، والكثير من الصور البشعة التي ترفض أن تغادر ذهنه، لطخته وجوه الكثيرين.

تذكر كيف بدأت تلك الليلة التي هزّت حياته حتّى اليوم، كيف كان يعانقها محاولًا التخفيف عنها بسبب شجارها مع أنور ورحيله مع الفتاتين إلى المنزل الصيفي من دونها. كان عناقًا بريئًا لا تشوبه أي شهوات، إلى أن بدأت سلوى باشتمامه بصوتٍ عالٍ، بدأت تتمسك بقميصه وهي ما زالتْ تبكي بشدة، حينها تراجعت عنه ونظرت إليه بعينين رطبتين وشفتين مرتجفتين. من دون أن يقوم بأدنى محاولة لمقاومة الرغبة، اقترب منها وقبّل شفتيها بعنفٍ كما لو كانت تلك هي قبلته الأولى، والأخيرة في الوقت نفسه...

كان رامي يومها قد نسي آلة التسجيل التي يسجّل عليها عادة أفكاره من أجل المرافعات مشغّلة.

بعد نحو أسبوعين على ذلك اليوم، كان أنور يعبث بمسجل رامي، فسمع أصواتًا لم يشكّ في أنها أصواتُ ممارسةٍ عنيفة للجنس. وفي الفترة نفسها كان يجد حبوب منع حمل في غرفة النوم. ولم تكن تعنيه كثيرًا، فقد كان واضحًا أنها إحدى محاولاتها لإثارة غيرته.

لم يتمكن أنور من الاستماع إلى التسجيل كاملًا من بدايته، ولكنه ظن أنها إحدى ليالي رامي الجامحة التي لا تنتهي، وهو أساسًا لن يكون يومًا في دائرة شكه.

أما بالنسبة إلى سلوى، فبعد عودته والفتيات من المنزل الصيفي، وجد سلوى تستعمل حبوب منع حملٍ من نوع مختلف،

حبوبًا كان قد رأى مثلها في بريطانيا في إحدى رحلاته، حبوبًا تتناولها النساء بعد ممارسة الجنس كي يتأكدن من القضاء على أي حملٍ محتمل. وبما أنه لم يكن قد شاركها السرير منذ سنة كاملة، فلا بد أنها قد مارست الجنس مع شخصٍ آخر. واستعمالها لهذه الحبوب كان بسبب ظنها الساذج أنه لن يتعرّف إلى طبيعتها، وكأنها الوحيدة التي قضت بعض الرحلات في أوروبا!

لم يحقق معها، ولم يحاول أن يعرف متى أو مع مَن فعلت ذلك، بل اكتفى بأن حمل الحبوب إليها وهي تتكلم على الهاتف، وقف قبالتها فشعرت بأنه سيقول شيئًا مهمًّا. لذلك، أنهت الاتصال مع أخيها، ونظرت إليه وهي تشعر بالنصر؛ لأنها استطاعت أخيرًا أن تستثيره وتجعله يتكلم. إلا أنّ رد فعله كان أقل بكثير من توقعاتها، بينما كان عقابه أكبر بكثير منها.

رماها بعلبة الدواء، وقال لها وهو خارج من المنزل: «هل تظنين نفسك الوحيدة التي سافرت يومًا إلى أوروبا؟ أظهري بعض الاحترام وخبئيها على الأقل».

منذ ذلك الحين، تحطّم القفص الذهبي الذي كانا يعيشان فيه لستة عشر عامًا. أصبح بالكاد يتكلم معها، وبالكاد يلمسها في السرير. كان يجلس أمامها كالشبح، لا ينطق إلا للتحدث مع الفتاتين اللتين باتتا كلّ حياته منذ ذلك الحين، واللتين كانتا السبب الوحيد في عدم قدرته على ترك كلّ شيءٍ وراءه والرحيل إلى مكان لا يُضطَرّ فيه يوميًّا لمواجهة ما يذكّره بالخيانة وبتلك الزوجة التي سخّر حياته لها بدل أن يستمتع بثروته في شبابه المبكر. حتّى إنه حين كان يخرج مع بيسان وبانة، كان يطلب منها، بلهجة حاسمة لا تحتمل النقاش،

عدم مرافقتهم. وحين كانتا تسألانه عن سبب عدم قدوم أمهما، كان يقول لهما إنها متوعّكة وتفضّل البقاء في المنزل.

بعدها بعام، عادت المياه إلى مجاريها، لكن سلوى كانت قد جُرّدَت من الحقوق في ذلك المنزل، الأمر الذي بدأ يولّد لديها رغبة جامحة في الطلاق والانفصال عن فارس أحلامها الذي تحوّل إلى ملك كوابيسها المستبدّ. كانت تعلم أنّ عليها أن تخوض تجربة شاقة للطلاق منه، وكانت تعلم أن المحاكم الروحية ستتلاعب بهما إلى حدّ إصابتها بالملل قبل أن تسمح لهما بالطلاق، لكنها لم تكن ترى حلًّا آخر.

أما رامي، فمنذ ذلك الحين وهو يحاول جاهدًا الحؤول دون أن يشكّ أنور في أنه كان هو من شارك امرأته سريره، وكان يحاول عدم استفزاز سلوى بأيّ شكلٍ كي لا تقوم بكشف كلّ شيءٍ.

فجأة، سمع صرخة جميلة أيقظته من تأمله، أيقظته من صلاته التي كان يشك في أن هناك من يمارسها غيره في بلده. لم تكن من خارج رأسه، بل كانت صرخة النشوة التي أطلقتها سلوى منذ سنتين، وما زالت حتّى اليوم تفسد عليه فرحة كلّ انتصارٍ يحققه.

هكذا هو الإنسان، أو هذا ما اقتنع به رامي بعد ما حصل: ذنبٌ واحد يكفي، ذنبٌ واحد فقط كي يفقد الإنسان طعم النجاح في كلّ لحظة من حياته، ذنبٌ واحد فقط كي يوقف بحثه عن النجاح في حياته، ذنب واحد يجعله جامدًا يتفرج على مسيرته الطويلة تنتهي في زاوية صغيرة يجلس فيها باكيًا على ما فعله في أول الطريق أو في منتصفه، أو على ما لم يفعله أبدًا. فهو ذنب مزروع في داخله ويتحكم، بكل وعيٍ ولا وعيٍ، في إدراكه.

الاثنين 19 تشرين الأوّل 2009

كان في مكتبه، يُعدّ على حاسوبه مرافعته للقضية التي سيحضر جلستها بعد يومين. رنّ هاتفه، لم يهتم مَن المتصل، قام برفض الاتصال. عاد الهاتف ليرنّ مرة أخرى.

كان أنور هو المتصل.

– لماذا رفضت الاتصال؟

– لأنني أعمل، ما الأمر؟ هل حصل شيءٌ ما؟

– لا ليس بالضبط، أريدك أن تذهب إلى منزلي. هناك أرقام أحتاج إليها ولم أجدها على هاتفي، لا بد أنني سجلتها على الدفتر.

– حسنًا، سأمرّ مساءً على منزلك، ولكن دعني الآن أكمل عملي وأفكر في حجة للدخول إلى مكتبك من جديد.

خطرتْ له فكرةٌ غريبة حينها. فجأةً بدأ يفهم لماذا لا يريد أنور العودة إلى أسرته. كان يعلم ما معنى الحبّ، ويعلم أنّ من يحب لا يمكن أن يتردد في الرجوع إلى من يحبّ، وأنور على الرغم من ذلك يرفض الرجوع إلى سلوى. هل يعقل أنه لم يعد يحبها؟ لقد كانت تصرفاته غريبة تجاه أسرته في السنتين الأخيرتين. هل يعقل أنّ الشيء الذي لا يريد سرقته ليس ملكًا لأحدٍ أساسًا؟

حتّى سلوى، كان أول ردّ فعل لديها هو الندم على رقصتها الأولى معه، على الرقصة التي بدأ بها كلّ شيءٍ. هل يعقل أن تكون هي الأخرى قد فقدت الحب؟ هل يكون للحدث الذي دار منذ سنتين وظن أنه انتهى ومرّ بسلام، أثرٌ في ما يحصل الآن؟

علم حينها أنه بحاجة ماسة لرؤية سلوى، حتّى يعرف منها ما الذي حصل وما لم يحصل. اتصل بها فورًا وأخبرها أنه آتٍ في المساء.

في المستشفى الفاخر الذي يدلّل مرضاه، كانت ندى تقوم بالأعمال المكتبية المملة، والتي لا تعلم حتّى الآن لماذا كلفها مدير المستشفى بها. تُدخل أسماءً وتبحث عن أخرى، وتضطر إلى التعامل مع الجهاز الذي تكرهه منذ خمس سنوات... الكومبيوتر.

رنّ الهاتف الداخلي الذي بقربها. رفعت السماعة وكان مسؤول الموارد البشرية في المستشفى. قال لها إنه يقوم حاليًا بالتدقيقِ في أوراق العاملين في المستشفى.

– لن أساعدكم في هذا أيضًا، أنا ممرضة ولستُ سكرتيرة.

– لم أقل هذا، ولكني بحاجة لشهاداتك العلمية التي وُظّفتِ على أساسها. لديّ مجرّد صور عنها، وأنا بحاجة للنسخ الأصلية حتّى أتحقق منها.

– حسنًا سأحضرها غدًا، وغدًا أريد أيضًا أن أبدّل نوبتي مع سمر. لا أريد أن أعمل في الصباح.

– لا بأس، اتفقي معها ولا تنسيا أن تبصما.

– حسنًا.

هي تعلم أن أنور، العائد من القبر، لا يمارس أي عملٍ الآن على الأغلب. لذلك، يبدو الذهاب صباحًا إلى منزله أضمن، حتّى تجده وتقوم معه بالأمر الذي قامت به مع عشرات الرجال من قبله.

تذكرت مبتسمة أول رجل فعلت معه ذلك، أو للدقة أول مراهقٍ، أول مرة جربت فيها الجنس من وجهة نظر مختلفة. عاد بها الزمن خمس سنين إلى الوراء، حين التقت معلمتها لأول مرةٍ. تذكرت أول مرةٍ عرضت فيها الجنس على شاب.

كان مجرّد شابٍّ صغير يدرس لامتحانات الصف الأول في المرحلة الثانوية. كانت هي مدرّسته الخصوصية لمادة الرياضيات، ليست بالضبط مدرّسة... لم تكن سوى صديقة أخته الكبرى، وتكبره بثلاث سنواتٍ.

كانت تعطيه الدرس الأخير، وكانا وحدهما في المنزل بعد أن خرجت صديقتها إلى جامعتها وأهل الشاب إلى العمل. كانت تعرفه منذ خمس سنوات، وكانت تراقب بمتعة نظراته الشهوانية تجاهها في كلّ مرة تزورهم فيها.

في ذلك النهار، وعلى الرغم من أنها لم تكن تخطط للجنس بجدية، إلا أنها كانت قد اشترت واقيًا ذكريًّا من باب المغامرة. كانت بحاجة للقيام بشيءٍ فيه تمرد على النظام، النظام الذي بدأ يخنقها منذ عادت من باريس.

قام بحلّ المسألة الأخيرة بنجاح ومن دون أخطاءٍ، مثبتًا تجاوزه لنقاط ضعفه في الرياضيات. اقتربتْ منه بهدوءٍ متعمدة أن يشعر بأنفاسها في أذنه، وهمست: «هذه لأنك حللت المسألة بشكل صحيح». ثمّ عادت قليلًا إلى الوراء وطبعت قبلة طويلة على الحدّ الفاصل بين خده وعنقه. قام لا إراديًا برفع رأسه لتستقر القبلة على عنقه.

وجّهت إليه النظرة التي ينتظرها كلّ شاب من كلّ فتاة. أمسكت به من ذقنه ورفعت رأسه باتجاهها. اقتربت منه بهدوءٍ، قبّلت شفته السفلى لأقل من ثانية وابتعدت لينظر في عينيها. ابتسمت له ابتسامة صغيرة، أرجعت نفسها معطية الإشارة له بانفتاح الأبواب.

انقضّ هو بعد ذلك مُخرجًا كلّ الرغبات الجنسية المراهقة، مفرغًا كلّ الكبت، وقاتلًا الصمت الذي كان يميته أثناء ممارسته للعادة السريّة في الحمّام كلّ يوم تقريبًا.

أمّا ندى، فكانت مستمتعة بخسارة عذريتها على يد شابٍّ قاصر، كانت مستمتعة بالخروج، رغمًا عن أنف الواقع، من العالم إلى مكانٍ تنعدم فيه الروادع الأخلاقية، تنعدم فيه الأحكام والألقاب والعيب والحرام.

منذ ذلك النهار وهي تمارس الجنس مع كلّ شابٍ أو رجل متعطش للجنس من حولها. كانت دائمًا تعرف أي باب عليها أن تطرق. كانت تعلم أن الشاب أو الرجل، مهما تجبّر وادّعى العفة والامتناع عن الجنس، هناك دائمًا في داخله مراهق متلهفٌ لرؤية الصدر العاري لامرأةٍ، هناك دائمًا في داخله تلميذ جامعي لا يريد أن يكون جوابه «ولا مرة» على «كم مرة مارست الجنس؟»، في لعبة «أمرٍ وصراحة».

مارست الجنس مع صاحب المنزل الذي استأجرته حين انفصلت عن أهلها، مارسته مع مدير المستشفى ومع ابنه الذي يبلغ الآن الخامسة والعشرين من عمره، مارسته مع نزار ومع ابن عمها الذي يتردد أحيانًا إلى سوريا، بينما يقضي معظم وقته في فرنسا. مارست الجنس مع رجالٍ التقتهم في حاناتٍ ليلية، مع حراس بعض الحانات الليلية، حتّى إنها مارست الجنس مرة مع كاهن، لكنها قررت من بعدها ألا تمارس الجنس مع رجال دينٍ، فقد رأت أنه يمارس الجنس بطريقة

مملّة، محاولًا أن يظهر عفيفًا وغير مبالٍ بالأمر، في حين أنه جاهز لمضاجعة أول فتاة مؤمنة أو غير مؤمنة تتوافر له. لذلك، اقتنعت بأن عليهم - أي رجال الدين - أن يلتزموا، كباقي الكهنة والشيوخ، الصلاة والصوم وتنفير الناس من الجنس والدين في آن واحد.

لم تكن تحتاج إلى أن تطلب من أيّ رجل ممارسة الجنس. كانت فقط تقوم ببعض الطقوس التي تعلمتها مع الوقت، ثمّ يصبح الشاب الذي أمامها فجأة ممن يريدون أن يعيشوا تجربة روحية عن طريق الجنس حصرًا. وهي لم تكن تقوم بشيءٍ سوى مساعدة الشبان على فهم المرأة بشكل أفضل - كما كانوا يتحجّجون - أو فهم أنفسهم. لم تكن تظهر إلا كمساعدة بريئة.

كان يكفيها أن تجد شيئًا غريبًا في الرجل الذي أمامها كي تطرح نفسها في سريره. مثلًا، مرة ضاجعت شابًّا في التاسعة عشرة من عمره لأنه حصل على مجموع تام في امتحان الشهادة الثانوية. كما لو أنها تجمع الطوابع، تضيف إلى مجموعتها رجلًا كلّ شهر ربّما. مرة تضع على دفتر طوابعها شابًّا حصل على مجموع تام، مرة تضع عليه رجلًا مقطوع اليد، مرة تضع عليه رجلًا مريضًا بالسرطان، وهذه المرة قررت أن تضيف إليه رجلًا عاد من الموت.

الأذن تقف قرب الباب الصغير، تسترق السمع، تتنصت لأمور قد تغير حياتها، وقد تغير حياة آخرين. الأذن تقف وتستمع رغم الضجيج والفوضى في داخلها:

– هل لي بسؤالٍ صغير؟

– نعم بالطبع، ماذا؟

– هل كانت هناك مشاكل بينك وبين أنور قبل وفاته؟

– لماذا تسأل؟

– لأنه قبل وفاته قال لي إن هناك أمورًا قانونية يحتاجني فيها، وقال إنه لا علاقة لها بالعمل.

– هل يهمك بالفعل أن تعرف؟ لا أظنها فكرة جيدة أن أناقش أو أتحدث عن الأمر معك.

– نعم يهمني، أفضّل أن أعرف ما الذي كان يحصل.

– كنا على وشك الطلاق، ولكن قررنا تأجيل ذلك لما بعد امتحانات بيسان، وافتعلنا الاحتفال بذكرى زواجنا كي لا تشك الفتيات بشيءٍ، وكي يسيّر بعض أعماله التي لا تنتهي.

– كنتم على وشك الطلاق! ولكنك تبدين حزينة عليه بالفعل؟ ما هذا؟ هل هو تمثيل أيضًا؟

– لا ليس كذلك... لقد وجدت نفسي في مفترق لا أعلم ماذا أفعل عنده. لقد مات شخصٌ كنت شبه منفصلة عنه، ولكن هل يرحمني الناس لو أعلنتُ ذلك الآن؟ لو توفي بعد عام من الآن، لكنت الآن منفصلة عنه ومتزوجة ربّما. ولكن بما أنه مات قبل الطلاق سأصبح الشيطان بحدّ ذاته إن فكرت بالارتباط بغيره بعد اليوم.

– الأمر ليس سهلًا، ولكن ما لا أفهمه هو لماذا لم تخبراني بذلك؟

– لماذا برأيك؟

– هل لخلافكم علاقة بما حصل بيننا منذ عامين؟

– طبعًا... وهل من أمر آخر يجعله ينسى تيمه بي ويقرّر الانفصال عني؟

– لكني ظننته قد تجاوز الأمر. ألم تعودا للتواصل من جديد بعد سنة من تلك الحادثة؟

– يبدو في النهاية أنه لم يصدق، ومن ثمّ، النظرة التي بدت على وجهه حين وجد تلك الحبوب اللعينة لم توحِ بأنه ينوي تجاوزه يومًا ما.

– ....

– المهم الآن أنني أريد منكَ أمرًا، أريد أن أسألك إن كنتَ مستعدًا لتخاطر معي.

– أي مخاطرة تلك؟

– رامي... أنا بحاجة إليك في هذه الفترة، وأنت تعلم جيّدًا ذلك. لقد حبستُ ما في داخلي لوقتٍ طويل وكنتُ على وشك الوصول إلى برّ الأمان الذي يتيح لي أن أكون معك إلى أن حصل ما لم أكن أحسب له حسابًا.

– هل أنتِ جادّة؟ هل هذا ما تفكرين فيه الآن؟ بالطبع لن أستطيع أن أقدم لكَ ما تطلبينه الآن. على الأقل احترامًا لذكرى أنور.

– أرجوك، لا تكن أقسى من القدر. أرجوك، لم أعد أحتمل اجتماع العالم ضدّي.

– سلوى، أرجوكِ. تلك كانت ليلة واحدة. الأمر ليس بالحجم الذي تظنينه. نزوة مررنا بها وانتهت، وأظن أننا منذ ذلك الحين متفقان على أنها كانت خطأً لا يجوز أن يتكرر.

لم تعد الأذن تحتمل سماع المزيد، أخفت نفسها من جديد داخل السرير، وأخذت تنصت للصمت داخل سريرها؛ فقد كان ذاك الصمت هو ما تحتاجه بيسان لتهدأ روحها بعد ما سمعت عنه من بشاعة في العلاقة بين والدها ووالدتها، التي كانت تظنها قصة الحب الأخيرة في القرن العشرين.

تكوّمت داخل سريرها باكيةً. لم تكن تريد أن تصدّق أنها مستيقظة. أرادت أن تستيقظ لتكتشف أن كلّ ما حصل حلم. تريد أن تستيقظ لتجد والدها جالسًا على الشرفة قبل ذهابه إلى عمله، بينما تجهّز أمّها الطعام لها ولبانة، بدلًا من تلك الآسيوية المتطفلة. وحين تخرج هي وبانة مع والدهما، تريد أن تراه يودّع والدتهما بقبلة على وجنتها.

أرادت أن يعود بها الزمن إلى اليوم الذي أصيبت قدم أبيها فيه، حتّى تبقى مع أمها وأختها في المستشفى، ويتوقف الزمن عند تلك اللحظة.

في الغرفة الأخرى، كانت بانة تحاول أن تدرس. ملّت من قراءة المعادلات الكيميائية التي لا تفهم منها شيئًا. نهضت لتجلس مع أختها الكبرى قليلًا. دخلت الغرفة فوجدتها متكوّمة على السرير، تمسك بيديها أجزاء جسدها النحيل بشدة كما لو أنها تقوم بعصر نفسها.

اقتربت منها ودسّت يدها في شعرها. وضعت شفتيها على جبينها من دون أن تقبّلها، فقط وضعتهما على جبينها. لم تحاول أن تسألها ما الذي حصل. كانت حالات البكاء المسائية تراود معظم أفراد العائلة كلّ يوم منذ «توفّي» أنور.

«هل تعلمين بانة؟ أظن أن ما رأيتهِ في أحلامك ليس خاطئًا بالكامل.»

حتّى أنور كان يعيش حالة مماثلة. كان مستلقيًا أمام التلفاز ويقتله الملل، يقتله الفراغ الذي يمنعه من التفكير إلا في ابنتيه، يمنعه من التفكير إلا في سلوى التي باتت فجأة تعني له شيئًا من جديد، رغم أنه لم يكن متأكدًا من أن عودته من الموت ستكون كافية لترأب الصدع بينهما. يبدو أن سنتين لم تكونا كافيتين لينسى الخيانة.

من دون تفكير، رفع سماعة الهاتف واتصل برقم منزله. لم يكن يعلم ماذا ينوي أن يقول، ولكنه شعر بحاجة ماسّة لسماع صوت أحد أفراد أسرته. رنّ الهاتف مرة مرتين ثلاث مرات.

«ألو... ألو ... ألو.»

لم يردّ على صوت سلوى، اكتفى بأن سمعه، وإن كان مشتاقًا لصوت ابنتيه أكثر، إلا أنه اكتفى بسماعه لصوت سلوى وأغلق السماعة. رغم أنه هو الذي اختار أن يبعدها عنه بعد خيانتها له، إلا أن شيئًا في داخله كان يقول له إن الذنب كان ذنبه منذ البداية؛ فهو الذي بدأ بالتوتر والبرود في علاقتهما، هو الذي تهرّب منها، هو الذي فعل كلّ ذلك بدلًا من الوقوف في وجهها والقول لها: أنا أمر بأزمة نفسية وأشعر بأني كبرت بسرعة، لذلك أخاف من الاقتراب منكِ كي لا تري أن الشاب الذي دعاك إلى رقصة منذ سبعة عشر عامًا أصبح عجوزًا الآن.

قفزت بانة نحو الهاتف وسألت أمها مَن كان المتصل، لكن هذه الأخيرة لم تجبها. كانت بانة متلهفة لتعلم من المتصل؛ فهي، منذ أتتها الرؤيا بأن والدها ما زال حيًا، باتت تنتظر اتصاله في أيّ لحظة، حتّى أن أيّ رنين هاتفٍ جوال أو هاتف البيت كان يعني لها شيئًا.

عادت إلى غرفتها، أخذت السمّاعة اللاسلكية ورأت الرقم الذي اتصل. عاودت الاتصال به، رنّ مرتين، ثلاث مرات، أربع مرات، لكن أحدًا لم يجب، إلى أن فُتحَ الخطّ.

رفعِ أنور السماعة وتأخّر في قول «ألو» لأنه كان يشعل سيجارته، وإذا به يسمع صوت بانة تردّد «من؟ من؟». بقي صامتًا، فهو يعلم أن بانة تستطيع تمييز صوته من بين ملايين الأصوات.

ذرف دمعة واحدة. كان اشتياقه لذلك الملاك الصغير يؤرقه، لم يجب بأي شيءٍ، وهو يعلم أنها لو لم تكن تشكّ في كونه هو من

اتصل، لما عاودت الاتصال. وبعد مئة «من؟» قالتها، أنهت الاتصال بجملة مزقت قلبه:

«إن كنت من في بالي، فأنا سأبقى بانتظار اتصالك دائمًا.»

لم يكن يعلم أن بانة على هذه الدرجة من الثقة بأنه ما زال حيًّا، وهو رغم ذلك كان سعيدًا بأن هناك من يريده أن يظلّ حيًّا. منذ تلك اللحظة، بات يتحرّق شوقًا للذهاب إلى بيته من جديد، بات يتشوّق لينسى الأمور السيئة التي حصلت بينه وبين سلوى، يتحرّق شوقًا ليعدّ الشاي لبيسان حين تدرس، ويتحرّق شوقًا لسماع اتصالات بانة من جديد، وهي تطلب منه إحضار الأطعمة قبل قدومه إلى المنزل.

رمى السماعة من يده. لم يكتفِ بذلك، بل أخذ يمسك بها ويرميها على الأرض بعنفٍ، مرة... مرتين... عشر مرات، حتّى تحول الهاتف إلى قطعٍ صغيرة كانت الأزرار أكبرها.

لم يعد يريد الاستمرار بهذا، يريد العودة إلى منزله والرجوع بالزمن، ليس عشرة أيامٍ فحسب، بل ثلاث سنواتٍ كاملة. يريد أن يعود إلى المنزل السعيد الذي لطالما اقتنع بأنه منزله، يريد بانة يريد بيسان ويريد سلوى، حتّى تلك الآسيوية البلهاء التي لا تتكلم العربية يريدها.

تكوّم على الأرض متكئًا بظهره إلى الحائط وفكّر: «هل كان على التجربة التي تعيدني إلى الحياة من جديد أن تكون بهذه القسوة؟ هل كان عليّ أن أجرّب الموت ولا شيءَ أقل كي أعرف قيمة الحياة التي كنتُ فيها؟»

نهضت بانة بسرعة إلى كومبيوترها المحمول. فتحته، وأخرجت من أحد رفوف خزانتها مجموعة من الأقراص المدمجة، بحثت بينها عن القرص الذي لم تعتقد أنها قد تستخدمه يومًا. كان دليل هواتف مدينة دمشق.

أدخلت الرقم الذي اتصلت به منذ دقائق، وانتظرت اسم صاحبه وعنوانه:

أحمد كمال شالاتي

ركن الدين

لم يكن اسم والدها، ولكنها متأكدة أن الاسم قد يعني شيئًا. خرجت إلى غرفة الضيوف حيث كان رامي لا يزال جالسًا مع أمها.

«هل تسمح لي بسؤال؟»

كانا كلاهما قد ارتبكا بعدما تنبّها لوجود الفتاتين في المنزل، ولاحتمال أن تكونا قد سمعتا حديثهما. وافق على أن يجيبها على سؤالها حتّى يتخلص منها بأسرع ما يمكن.

«أحمد كمال شالاتي... من هو؟ جاء والدي مرة على ذكره.»

لم يكن رامي يفكر كثيرًا في الإجابة، أو بالأحرى لم يكن يفكر كثيرًا بالسؤال. أجابها حالما تذكّر الاسم.

«إنه المالك السابق لأحد المنازل التي اشتراها والدك، ولكن لا أذكر أيّ واحد منها؛ فقد اشترى وباع الكثير من المنازل في الفترة الأخيرة. لماذا تسألين عنه الآن؟»

«يبدو أن ابنته معي في الصف، انتقلت أخيرًا إلى مدرستنا، وبدا اسم والدها مألوفًا حين سمعته، والآن تذكرت أن والدي أتى على ذكره يومًا.»

ذهبت بانة مسرعة إلى غرفتها مغتبطة بالتقدم الذي حققته في قضيتها الصغيرة. جهزت الرقم على الهاتف اللاسلكي، وحملت حاسوبها بيدٍ واحدة وذهبت إلى غرفة بيسان. نقرت على باب الغرفة، فلم تسمع جوابًا، ولكن ذلك لم يعنها.

دخلتْ، فوجدتها لا تزال متكوّمة على السرير. مدّت يدها إلى كتفها، وقالت لها: «بيسان، هناك شيءٌ عليّ إخبارك به الآن».

نهضت بيسان خائفة من أن تكون هي الأخرى قد سمعت ما سمعته للتو. نظرت إليها بانتباه وانتظار لما ستقول. رفعت بانة الهاتف في وجه بيسان:

«هذا الرقم اتصل منذ قليل، ولم يصدر أيّ جواب منه حين ردت أمّنا. عاودت أنا الاتصال به، ردّ صاحبه لكنه لم يقل شيئًا أيضًا.» ثمّ وضعت الحاسوب في وجهها تريها صفحة صاحب الرقم. «تحققتُ من الرقم في دليل هواتف دمشق، فوجدتُ أنه يعود لشخصٍ اسمه «أحمد كامل شالاتي». وحين سألت رامي صديق أبينا عن الاسم، قال لي إنه كان يملك أحد المنازل التي اشتراها والدنا قبل وفاته بفترة.»

لم تستوعب بيسان الفكرة بالضبط. هناك اتصالٌ جاء إلى منزلهم من أحد البيوت التي يملكها والدهم، والمتصل لم ينطق بكلمة وظل صامتًا.

ربّما كانت بيسان غير قادرة على استيعاب صدمتين في أقل من ساعة، ولكنها قررت هذه المرة أن تأخذ كلام بانة على محمل الجد؛ فمن الواضح أنها أتت وكل الأدلة بيديها. الآن تأكدت بيسان أن شيئًا غريبًا يحصل، على الأقل بعد أن علمت بخلاف والديها وخيانة أمها منذ سنتين.

«حسنًا... دعي الرقم لي وأنا سأجعل كنان يساعدني في التأكد من الأمر. هو يستطيع البحث عن أمور كهذه بسهولة. الآن اذهبي وأكملي دراستك وسأخبرك بكل المستجدات.»

«يا للخسارة لن أستطيع كتابة كيف مت... وأكثر ما يزعجني هو هذا الشيء. فالكاتب حتّى لو دوّن كلّ لحظات حياته إلا أنه سيبقى عاجزًا عن كتابة موته. على الرغم من أن الموت من أهم حوادث الحياة، وها أنذا ذاهبٌ دون تدوين أهم لحظةٍ من لحظات حياتي.»

عزيز نيسين
يساري أنت أم يميني

الثلاثاء 20 تشرين الأوّل 2009

كانت تسير في مكان تملأه الأشجار، أصوات الطيور تحيط بها من كلّ جهة. كانت تسمع صوتًا مألوفًا لأذنيها، يحدثها بالفرنسية الرقيقة. لم تكن تفهم الكلمات التي تسمعها بالضبط. فرغم فرنسيتها الممتازة، كانت تجد صعوبة في فهم الأحرف. اقتربت من الصوت حتّى تفهم، وكان الحنان الذي تشعر به عند سماعه يغريها بالاقتراب أكثر.

وصلت إلى نهاية مسدودة. جدارٌ غريبٌ في منتصف الغابة يقف بينها وبين الصوت الحنون الذي يشدها نحوه. أخذت تنظر إلى أعلى الجدار، ولم تستطع أن ترى له نهاية. نظرت إلى جانبي الجدار ولم تجد أي نهاية أيضًا.

شيئًا فشيئًا بدأت الغابة من حولها تتلاشى، وبدأ الصوت ينخفض، بينما علا من حولها جدار حاصرها. ثمّ فجأة توقفت حركة الأشياء وعاد الصوت ليعلو وقال لها: ندى، لا تتركيه يقف في وجهك، أنت تعلمين كيف تتخلصين منه. أليس كذلك؟

ارتجفت ندى لسماع هذا الصوت من جديد. كانت على وشك أن تبدأ بالبكاء. سألت الشابة الصغيرة التي كلمتها: لقد تعلّمتِ العربية؟ هل يمكنك الآن أن تخبريني المزيد بعد أن تجاوزنا عائق اللغة؟

ضحك الصوت قليلًا، وبدأ يردد لحنًا لطيفًا بلا كلمات. فهمت أنها تنتظر. كانت تعلم أن هناك طريقة لهدم هذا الجدار الذي لا يبدو متناهيًا. فكرت بأمرٍ واحد يدور في رأسها منذ وقتٍ طويل... ليس النظام من يحكم الإنسان؛ الإنسان هو من يحكم النظام. وليس هذا الجدار سوى النظام.

أغمضت عينيها وقالت بصوت لطيف مهذب: اختفِ الآن... انتهت مهمتك.

فتحت عينيها ووجدت الجدار قد اختفى، وكانت معلمتها الشابة تقف وسط الزهور والأشجار التي عادت من جديد وظهرت أمامها مبتسمة، اقتربت منها، وتربّعت على الأرض أمامها.

– هل ستخبرينني بالمزيد عن الرحلة التي بدأتِها وجعلتِني أكملها عنكِ؟

– لا! منذ البداية أخبرتك أنني لن أخبرك الكثير. أساسًا، الرحلة التي جعلتُكِ تكملينها هي رحلةٌ بلا خريطة، بلا لافتات تدلك على الاتجاهات.

– هل ما أقوم به يحطّم النظام؟ هل سيجعل الطبيعة البشرية تسمو فوق كلّ الأنظمة والقوانين في النهاية؟

– لقد اخترتِ طريقًا غريبًا، ولكنه جريء. تابعي سيرك لإبعاد عقول الناس، وأولها عقلك، عن كلّ الأنظمة. ولكن تأكدي ألا يصبح هذا الطريق نظامًا تسير حياتك وفقًا له. مزقي الدفتر السخيف الذي تكتبين عليه أسماء الرجال الذين عرفتهم وتواريخ لقاءاتها بهم. لا تبحثي عن الجنس، بل دعيه هو يمرّ في طريقك، ولا تمانعي المكوث معه.

– ماذا عن هذا الرجل الغريب؟ هل أبتعد عنه؟ لقد عاد من الموت. حطّم... الموت، أكبر قانون في العالم!

ظلت صامتةً، فيما كانت ندى تتحرّق شوقًا لتسمع إجابتها. كانت تريد أن تسمع «نعم» أو «لا»، لا أكثر ولا أقل. بدلًا من ذلك، سمعت صوت أنفاسها يوقظها من نومها، يُفلِت عالم العجائب من يديها ويبعدها من جديد عن معلمتها التي استطاعت منذ خمس سنوات أن تغيّر حياتها إلى الأبد.

نهضت من السرير، سارت بهدوءٍ نحو الحمام. بعد أن اغتسلت، ذهبت إلى المطبخ الضيّق لتصنع لنفسها قهوتها الصباحية. تناولت فنجانها بيدٍ، وحملت باليد الأخرى سيجارة. أشعلتها ثمّ سارت نحو غرفة النوم حيث أخرجت من الخزانة دفترًا صغيرًا أنيقًا.

أخذت تتصفحه، تقرأ أسماءً، كلّ منها مقرون بتعريف مقتضب كي تتذكر من هو؛ «جمال سمور - الرجل الذي تزوج ثلاث مرات قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر»، «علي رفاعي - الرجل الذي استغرقت خدمة العلم لديه ثلاث سنوات بسبب كثرة العقوبات». قامت بإحصائهم. ستة وخمسون رجلًا خلال خمس سنوات، بعد ذلك بدأت بتمزيق الأوراق، فلم يبق من الدفتر سوى غلافه، حتّى الأوراق البيضاء، التي لا تحوي أي أسماءٍ، قامت بتمزيقها، كي لا تدوّن أي أسماءٍ جديدة.

وضعت جميع الأوراق في إناءٍ معدني وقامت بحرقها، تنفيذًا لأوامر معلمتها التي تلقتها في الحلم.

اختارت ثيابًا داخلية أنيقة، وارتدت ثيابًا يسهل خلعها: قميصًا، وبنطالًا قطنيًّا لا أزرار فيه ولا سحّابات. فوقها، وضعت معطفًا خفيفًا، ثمّ أحضرت حقيبتها وتأكدت من احتوائها على الواقيات وعلى الحبوب

الزرقاء التي تبقيها معها احتياطًا لعلّ أحد الرجال كان يعاني من عجز. كذلك، وضعت أوراق شهادتها الثانوية وشهادة تخرّجها من معهد التمريض اللتين طلبهما مسؤول الموارد البشرية في المستشفى.

نزلت إلى الطريق وركبت سيارة أجرة متوجهة إلى «ركن الدين»، حيث يمكث رجلها الجديد.

استيقظ من النوم. كان يستمتع بساعات نومه الطويلة؛ فعلى الرغم من التجربة غير الممتعة التي مرّ بها، كانت تلك بمثابة إجازة طويلة له. لم يعد يستيقظ صباحًا ليهتم بابنتيه قبل ذهابهما إلى المدرسة، وصار ينام حتّى ساعات متأخرة من النهار.

أشعل التلفاز ليشاهد نشرة الأخبار. لم يكن هناك شيءٌ جديد، المزيد من الخلافات من أجل دعم المحروقات، المزيد من الحديث عن قانون الأحوال الشخصية الجديد الذي يكرهه الجميع لسببٍ يجهله.

توقف عن البحث عن الأخبار. ذهب إلى المطبخ وصنع لنفسه فنجانًا من القهوة، ثمّ خرج إلى الشرفة، الأمر الذي لم يكن يجرؤ على القيام به في الأيام الأولى لمكوثه في هذا البيت. أشعل سيجارة وأخذ يفكّر في بانة ورؤاها الغريبة. لم يكن يومًا يصدّق هذه الأمور، ولكن هذه المرة وجد نفسه مضطرًا إلى أن يضع في الاعتبار احتمالية أن تكون هذه الرؤى حقيقية.

كانت رؤاها قد صدقت في مرات عديدة. من خلالها، استطاعت أن تخمّن بعض أسئلة امتحاناتها وامتحاناتِ أختها، حتّى أنها ساعدته في عمله بعض الأحيان. كان قد قرأ كتابًا عن «الباراسايكولوجي» جعله يبحث دائمًا عن تفسيرٍ لهذه الأمور.

رأى فتاة تدخل البناء. بدا وجهها مألوفًا له، ولكنه لم يتذكر من هي بالضبط. بعد قليلٍ رنّ جرس الباب، فذهب ليفتح. نظر من عين الباب تحسّبًا، فثمة أشخاص لا يرغب في أن يعلموا أنه على قيد الحياة.

كانت الفتاة المألوفة الوجه التي دخلت البناء للتوّ. حين رآها عن قرب تذكرها. لم يكن في المزاج العكر الذي كان فيه منذ يومين، وفي الوقت نفسه كان يشعر بالوحدة بعد سماعه صوت اثنتين من أفراد أسرته يوم أمس.

«ادخلي»، وتابع سيره باتجاه غرفة الجلوس التي كان قد هرب من مشاهدة الأخبار فيها. أما ندى، فسارت وراءه سعيدة بليونة موقفه مقارنة بالمرة الماضية، كما أغراها شيءٌ في كلامه القليل.

جلس على الأريكة وأشعل التلفاز، على الرغم من مرور سنين على آخر مرة حاول فيها جذب انتباه فتاةٍ ما، إلا أنه ما زال يتذكر المبدأ القديم القائل بـ«عدم إظهار الاهتمام للحصول عليه». كان ذلك هو المبدأ الذي لم يستخدمه سوى مرة واحدة، وكانت تلك هي المرة التي بدأت فيها قصة حبّه مع سلوى.

جلست بالقرب منه خجلى. خلعت معطفها لينكشف قميصٌ بلا أكمام. كانت تنتظر أن يسألها عن سبب قدومها، لكنه لم يبدُ كمن ينوي السؤال، ولم يبدُ عليه أي فضول أو اهتمام برجوعها. ربّما كان التوقيت هو السبب. لم تفهم يومًا سبب ممارسة الأشخاص للجنس في الليل دائمًا. لم تجد يومًا سببًا وجيهًا يمنع الرجال أو النساء من ممارسة الجنس في الصباح الباكر قبل الذهاب إلى العمل مثلًا، ولكن يبدو في النهاية أن هناك سببًا ما.

«أليس لديك فضولٌ لتعرف سبب قدومي؟»

نظر إليها بهدوءٍ مبتسمًا. شعر بأنه ليس الوحيد في الغرفة الذي يستخدم أسلوبًا قديمًا في التعامل مع الجنس الآخر. وعلى الرغم من ذلك، لم ينزعج لسرقة أسلوبه. وعلى كلّ حال فقد كانت هذه الشابة الصغيرة أكثر جرأةً المرة الماضية، وهو من أبدى لها أنه لا يلين مع الأساليب الحديثة، ولذلك - ربّما - قررت أن تنتقل إلى الأساليب القديمة في التعامل مع الجنس الآخر.

– لقد أخبرتِني بسبب قدومك منذ المرّة الماضية، لقد أشبعت فضولي من اليوم الأول للقائنا.

– جيد، بما أني أشبعتُ فضولك. ألن تسمح لي بأن أشبع رغباتٍ أخرى لديك؟

– أعرف الكثير من العاهرات، ولكنك لا تبدين كواحدة منهنّ، وذلك يزيد من حيرتي. لا أستطيع أن أفهم سبب هذه اللهفة لممارسة الجنس.

– سببها شيءٌ لم يطلب أيّ رجل مني شرحه من قبل. لذلك، تصرّف كباقي الرجال الشرقيين، ووافق على ما أطلبه منك، وأنت منتشٍ لأنني أنا من أطلبه، وليس أنتَ.

كانت تبحث عن طريقة لتطلب منه ثانيةً ممارسة الجنس معها، لكنها كانت تشعر بالإحراج؛ فهي يومًا لم تضطر إلى أن تطلب هذا الأمر مرتين. في معظم الأحيان لم تكن مضطرة إلى أن تطلبه أصلًا.

أما هو، فكانت تخطر له أمورٌ غريبة. تذّكر فجأة الفكرة التي راودته منذ أيام، حين اعتقد أن أحدهم يحاول العبث بعقله من خلال تدبير كلّ ما حصل له. ولكن هذه المرة كانت الفكرة أكثر منطقية.

فكّر في أنّ أحدهم ربّما حاول قتله، ولكن المحاولة باءت بالفشل. والآن، قد يكون هذا الشخص الذي حاول قتله - أيًا كان - قد علم أنه ما زال حيًا، من طريق تأمينه الصحي أو أمر من هذا القبيل. خطر له ألا تكون ندى سوى فتاة جاءت لتكمل المهمة.

قرر أن يراوده الشك تجاهها، اقترب منها قليلًا.

– هل تسمحين لي بتفتيش حقيبتكِ؟

– لماذا؟

– بسبب بعض الشكوك التي تراودني.

– ولكنها حقيبة فتاة، قد تكون هناك بعض الأمور الخاصة.

– الأمر الخاص الوحيد الذي قد يكون في حقيبة امرأة هو الفوط الصحّية، وبما أنكِ تطالبين بالجنس - على ما أذكر - فمعنى ذلك أنكِ لستِ في الوقت الذي تحملينها فيه.

– لا عليك، فتّش كما شئتَ.

فتح الحقيبة ليبدأ بالتفتيش، رغم أن معظم شكوكه تلاشت حين قبلت أن يفتشها. فاجأه أنها تحمل في حقيبتها أشياء خاصة كثيرة، أشياء شديدة الخصوصية، ليست فوطًا نسائية.

ثمّ وجد ورقة تبدو رسمية، أخرجها وفتحها ليقرأها. عرف أن اسمها ندى، ندى مارديني. ولكنه تفاجأ بمحتوى الورقة: مجموعها في الثانوية العامة العلمية 240/237. ابنته ستتقدم لامتحان الشهادة الثانوية. كان يفترض بندى، مع هذا المجموع، أن تكون طبيبة الآن وليس مجرّد ممرضة.

«أنتِ ممرضة... صحيح؟»

سعدت ندى ببعض الاهتمام الذي حظيت به أخيرًا، من دون أن تستغرب سؤاله، «نعم». وبماذا غير ذلك قد تجيبه؟ فهي لطالما

سمعتُ هذا السؤال من معارفها الذين يستغربون عدم دراستها للطب وتوجهها إلى التمريض.

– لكن درجاتك في الثانوية تكفي لتدرسي الطب، لماذا اكتفيتِ بالتمريض؟

– لديّ أسبابي الخاصة، أسبابٌ كانت كافية بالنسبة إليّ كي لا أدرس الطب.

– والتي هي...؟؟؟

– قصة طويلة، لا أظنها ستكون ممتعة بالنسبة إليك.

– دعيني أنا أقرر ذلك، ومن ثمّ أنا لديَ الكثير من وقتِ الفراغ وستكون قصتكِ مناسبة تمامًا كي أملأه بها.

لم تكن قد أخبرت أحدًا بقصتها من قبل؛ فقد كانت تعلم أن أحدًا لن يتمكّن من فهم الأمور التي جعلتها تحرف طريق حياتها إلى اتجاهٍ، ما من فتاةٍ عربية تجرؤ عليه.

ولكن، كان هناك ما يجعلها تشعر بأن هذا الرجل مختلف. نعم، جميع الرجال الذين سعت إلى ممارسة الجنس معهم كانوا مختلفين. ولكن هناك شيء مختلف فيه، مختلفٌ عنهم حتّى، شيءٌ يجعلها تريد التحدث معه حتّى الصباح التالي؛ فهو متحفّظ لا يصدر عنه سوى ما قلّ من الكلام. كذلك فإنها لمحت فيه شيئًا من التمرد يشبه ذاك الذي يحكم معظم حياتها، ربّما كان ذلك يعود إلى معرفتها أنه تمرّد على أكبر سلطة في العالم... سلطة الموت.

لعدة مرات، حرّكت رأسها وبدأت بفتح شفتيها ثمّ تراجعت... كانت هناك الكثير من المشاعر المختلطة تعتمل داخلها، بعضها يمنعها من الكلام، وبعضها الآخر يدعوها إلى الحديث. وفي العراك

المختصر بين هذا وذاك، خرجت الكلمات الأولى: «حين حصلت على شهادتي الثانوية...».

لم يعد هناك مجال للتراجع، فقد بدأت القصة وبات واجبًا عليها إكمالها، وهي تعلم أن أنور الذي استطاع أن يدفعها إلى الكلام بعد خمس سنوات من الصمت يستطيع أن يستخرج المزيد من الكلمات منها، لذلك قررت أن تستمر بالحديث:

«حين حصلت على شهادتي الثانوية، كانت هدية أهلي لي رحلة إلى باريس حيث تقطن عمتي وزوجها الفرنسي. ولكن أهلي لم يعلموا حينها أنهم قدموا ليَ أكثر من مجرّد رحلة سياحية إلى باريس. هناك، قضيتُ عدة أسابيع كأي سائحٍ، ولكن مع التزام نصائح إحدى صديقاتي بالابتعاد عن المتاحف والمعالم السياحية المعتادة، أي إنني بكل بساطةٍ وصلتُ إلى هناك ولم أزر الـ«لوفر» وأشكر الله كلّ يوم على أنني لم أفعل.

في أحد أيام عطلتي الباريسية، لفت نظري تجمع لبعض الأشخاص يدخلون بناءً بلا أبواب. لم أفهم بالضبط ما الذي كان هناك. دخلتُ حيث كانوا، فقد كان واضحًا أن الدعوة عامة، بما أن البناء مهجور ولا أبواب له، كذلك فإنه لم يكن هناك من أحدٍ ينظم حركة دخول الناس وخروجهم. دخلتُ ورأيتُ الأشخاص محتشدين حول شيءٍ ما. عاركتُ الحشود حتّى وصلتُ. كانت شابة شقراء تقف صامتة، والجميع صامتون منتظرين إياها أن تقول شيئًا، ثمّ فجأة بدأت تجول بنظرها. اقتربت من أحد الشبان وقالت له: «تخلَّ عن فكرة تركِ خطيبتك... هي فقط تحاول أن تغيظك بإيحائها لكَ بالخيانة». بدت السعادة على وجهه لاستعادته الثقة بفتاةٍ يحبها على ما يبدو، ولكن لم أفهم حينها ما الذي قد يجعله يصدق كلام الشابة الشقراء.

أخذت تتجول بين الحشود وتخبر أشخاصًا تنتقيهم بما عليهم أن يأخذوا من قرارات، وعما هي الأمور التي عليهم التخلي عنها. كانت السعادة تتملك البعض، والحزن يتملك البعض الآخر، ورغم ذلك، لم أكن قد فهمت بعد سبب تعلّق الناس بنصائحها التي بدت لي أقرب إلى التكهّن والتنجيم. لم أفهم الكثير من كلامها؛ فقد كانت الفرنسية التي تتكلمها مختلفة كثيرًا عن تلك التي تعلمتها في المدرسة، ولكن كان واضحًا أنها فصيحة في الكلام.

سألتُ شخصًا بجانبي: «من هي هذه الشابة؟». نظر إليّ مستغربًا بشدة: «هل أنتِ جادة في سؤالك؟». أزعجني ردّه، الذي يبطّن إيحاءً بغبائي، لكنني تجاوزت الإهانة وقلتُ له: «أنا لستُ من هنا، أنا من سوريا و في زيارة لباريس».

ردّ عليّ بجوابٍ مقتضبٍ يوحي برغبة في عدم إكمال: «إيلين دوليون». لم تنفعني كثيرًا معرفة اسمها، ولكن على كلّ حال لم يعنني الأمر كثيرًا بعد ذلك. خرجتُ من الحشود وعدتُ إلى منزل عمتي.

حين كنا نتناول العشاء سألتُ عمتي: «من تكون إيلين دوليون؟». فصمتتْ وتوقفت عن الأكل. أما زوجها، فحدثها بفرنسية ثقيلة متعمدًا ألا أفهم، وحتى الآن لا أعلم ما الذي قاله لها بغضب.

– لماذا تسألين؟

– ما من سببٍ، كنتُ في مطعم وسمعتُ شابين يتكلمان عليها بإعجاب، وكانا يقولان اسمها بشكل بديهي كما لو أنها من المشاهير، فصار لديّ فضول أن أعرف من هي.

– مجرّد امرأة مجنونة.

– أي نوع من الجنون؟

– من مجانين الطبيعة الذين يكثر عددهم في أوروبا هذه الأيام، يعبدون «أمنا الطبيعة» أو «الطبيعة الأم»، شيءٌ من هذا القبيل. وهذه الشابة تجتمع بأتباعها كلّ يوم في أحد الأبنية المهجورة وتدّعي أنها تدخل في حالة من التنوير أو الاتصال مع الطبيعة الأم، فتبدأ بإسداء النصائح للناس. أمرٌ يشبه الأبراج، ولكن أكثر جنونًا.

بدا الأمر كرواية قرأتها في ما مضى، ولكن كان من الواضح مما رأيتُ أنها تختار أناسًا معينين قد تكون متآمرة معهم سابقًا، أو أن هناك من يتحرى أمرهم لها. على كلّ الأحوال، فقد نجحت في إثارة فضولي. صرتُ كلّ يومٍ أذهب وأَحضر هذا الاجتماع الغريب، واكتشفتُ أن عدد الأشخاصِ يزيد كلّ يوم، وكانت هي تزيد من تصرفها جنونًا كلّ يوم.

ولكن، في أحد الاجتماعات، حصل أمر جعل القصة تعنيني أكثر؛ إذ كنتُ أحضر الاجتماع وكان في بدايته، كانت لا تزال واقفة بهدوءٍ مغمضة عينيها، فجأة قالت أمرًا بدأت به قصتي: «أنتِ اِبقَي وجميعكم اذهبوا... لديّ ضيفة مميزة اليوم».

لم تشر إليّ، ولم تقل اسمي، ولكني لسببٍ ما شعرتُ بأنها تتحدّثُ عني. بالفعل، همّ الجميع بالخروج، وأنا كنتُ مترددة في أمري، إن كنتُ بالفعل المعنية بكلامها أو أن عليّ أن أذهب وأتفادى الإحراج.

أخذت قراري بأن أبقى، وإن بقيت فتاة غيري فسأخرج وأكون آخر من يخرج.

بعد أن ذهب الجميع لم تبقَ فتاة غيري، فقط أنا وهي وشابان يبدوان كصديقين أو مساعدين لها. اقتربت مني وقالت لي: «كيف

كانت رحلتكِ من دمشق إلى باريس؟»، تعمّدت أن تذكر مدينتي كي تقنعني بمصداقيتها، ولكن خطر لي أنها قد تكون سمعتني حين أخبرتُ ذاك الشابّ أنني سورية في أول مرة أتيتُ إلى هنا.

«هل هذه نبوءة تتحقق، أم أنكِ جعلتِ أحدًا يتحرى عني؟»

لم تظهر عليها أيٌّ من علامات التفاجؤ، وكأنها كانت تعلم أنني سأقول ما قلت، ولكنها صدمتني بجوابها: «لا هذا ولا ذاك... سمعتكِ تخبرين شابًا أنكِ سورية في أول مرةٍ أتيتِ فيها إلى هنا».

هنا بـدأتِ الأمـور تصبح غريبة، قالت لي إنها تريدني أن أساعدها في نشر رسالة أو عقيدة ما تتبعها، وقالت لي إنها تريد ذلك ليس من أجل المزيد من الانتشار، بل لتساعدني على الوصول إلى سلامي الداخلي.

كانت عقيدة غريبة تلك التي يؤمنون بها. هم يقولون إنها لا تتعارض مع معتقدات الشخص الدينية، ولكن اتّباعك لهم سيدفعك بالتأكيد إلى القيام بالكثير من الأمور التي تخالف معتقدك الديني أيًا كان.

كانوا يقولون إن الإنسان خُلق - أيًا كان الذي خلقه - وسُخّرَت الطبيعة في خدمته، ولكن مع مرور الزمن، بدأ يخطئ ويصبح هو في خدمة الطبيعة، ولا سيما الطبيعة البشرية. لذلك، كي يجد الإنسان سلامه الداخلي، عليه أن يتوقف عن خدمة النظام، أي نظام، سواء كان ذاك الاجتماعي أو الاقتصادي أو حتّى السياسي، وبالتالي علينا أن نقوم بشكل دائم ومستمر بأشياء خارجة عن النظام كي يساهم كلّ واحدٍ منا في إعادة العلاقة بين الإنسان والطبيعة والنظام إلى وضعها الصحيح واللائق.

لم أفهم الكثير مما كانوا يقولونه. لم أعلم لماذا يجتمع هذا العدد من الأشخاص حول فلسفة على هذا القدر من التعقيد، حول فلسفة تطير في الهواء، ولكن رأيتها تجربة مثيرة، أن أناقش هذه الأمور معهم، وفي نهاية هذا الحديث الشيق قالت لي تلك الشابة جملة لا أزال أسمعها إلى الآن طوال الوقت: «فقط راقبي نفسكِ ليوم واحد حتّى تعلمي كم أنك تسيرين في خطواتٍ رسمها لكِ آخرون».

في اليوم التالي، لم أذهب لأراها، بل قضيتُ يومًا عاديًّا في باريس كأي سائحة، ولكني قمتُ بمراقبة نفسي امتثالًا لنصيحتها. الغريب، هو أنني بالفعل شعرتُ بعدم اختياري لأيّ شيءٍ مما أقوم به. كنتُ أجد في كلّ مكان أقصده الكثير من غير الفرنسيين رغم محاولتي الابتعاد قدر المستطاع عن الأماكن السياحية المعتادة، كأن أحدهم قد قرر أنه على غير الفرنسي الآتي إلى باريس أن يتجوّل في هذه الأماكن. لم تكن تبعاتُ الشعور بأنها على حق إيجابيةً بالنسبة إليّ، فقد فقدَتِ الأشياء من حولي فجأة لذّتها، فقدتْ جمالها، لأول مرة فهمت معنى أن يتحول الإنسان إلى رقم، إلى مجرّد وحدة يتم إحصاؤها وحسب.

مرتْ عدة أيام من دون أن أزورها، ومن دون أن أتردّد إلى ذلك البناء المهجور. حتّى الحزن، اكتشفت أنه غير شخصي؛ فنحن لا نحزن، بل نقلّد ما رأيناه طوال حياتنا عن الحزن، بدأت أشعر باختناق بسبب اكتشافي الجديد.

في النهاية، لم أعد أستطيع المقاومة. ذهبتُ إلى حيث تجتمع بمعجبيها - إذا صح التعبير - كنتُ أنوي الانتظار حتّى يرحل الأشخاص المتجمعون حولها، ولكنها قالت لهم: «اليوم لن نجتمع، اذهبوا وافعلوا

شيئًا مسليًّا!». انفضّ الجمع من حولها من دون صدور أي اعتراض أو شكوى. لا بد أنهم كانوا معتادين خرقها للنظام، وهم موافقون ضمنيًّا على هذا الخرق، وإن كان ذلك يتسبّب «بأذيّتهم» شخصيًّا.

حين رحل الجميع، بقيتُ أنا وهي. حتّى الشابان اللذان يرافقانها عادة ذهبا. بقيتُ أنا وهي فقط. سألتها: «هل رأيتني فطلبتِ من الجميع الرحيل كي نبقى وحدنا؟». ابتسمت وقالت لي: «لا لم أركِ، ولكن من السهل توقع تصرفاتكم - أنتم الذين ما زلتم عبيدًا للنظام - وقد عرفتُ أنك ستأتين اليوم بالذات كي تستريحي من الشعور البشع الذي يراودكِ، وأعتقد أن الحزن على الطريقة التقليدية لم يحسّن الأمور كثيرًا».

بدأت حينها تذهلني قدرتها على التنبؤ بالأمور، وكشفها عن الطريقة البسيطة التي تتوصل للمعلومات من خلالها بدلًا من أن تدّعي تميّزها بقوة خارقة تمنحها هذه القدرة. بدأت تذهلني كلّ الأمور التي تتعلق بها: الطريقة التي حشرت نفسها بها في حياتي رغمًا عني، التواصل الكبير الذي يجري بيننا رغم ضعف فرنسيتي، لم يكن تواصلًا لغويًّا أو شفويًّا، وإنما تواصلًا من النوع الغريب، كذلك الذي يدور بين الأم ورضيعها الذي لا يعرف كيف يلفظ اسمها بعد، كذلك الذي يدور بين عاشقين أثناء اتصالٍ هاتفي وكلاهما صامت. كان، ببساطة، يشبه تواصل الإنسان مع نفسه.

سألتها كيف يمكنني العودة لطبيعتي المتحرّرة من النظام؟ وكان جوابها، كالعادة، مفاجئًا رغم عاديته، قالت لي من دون أن يرفّ لها جفن: «لا يمكنك ذلك».

شعرت بالخيانة حينها، رغم أنه جواب طبيعي. فحتى أنا كنتُ أجده أمرًا مستحيلًا أن أتخلص من هذا النظام. ولكنها كانت كطبيبٍ

أخبرني أني مصابة بمرض مميت في وقتٍ متأخر، في وقتٍ أصبح العلاج فيه مستحيلًا. وكالمريض كنتُ أريد أن ألوم الطبيب، رغم أنني أعلم أنه رسول ما عليه سوى البلاغ.

قالت لي: «لا أحد يمكنه الخروج عن النظام، فهذا النظام يحمي نفسه بطريقة عجيبة. لا يمكنك حتّى التفكير بالخروج عنه من دون أن يكون في ذلك تدميرًا ذاتيًّا لنفسكِ. إلا أنه يمكنك أن تساهمي في انهياره، وذلك عبر مخالفة قوانينه، فإذا تضافرت جهود كثيرين في هذا الإطار، قد يؤدي ذلك لانهياره مع مرور الزمن.»

لم أعلم ما الأمر الذي كان عليّ القيام به لأتمكن من إضعاف هذا النظام، ولم أعلم إن كنتُ أساسًا قادرة على إحداث أي فرقٍ في هذا الأمر الكونيّ الكبير. ولكن في الوقت نفسه لم يكن شعورًا جيدًا أن أقف مكتوفة اليدين أمام هذا العجز الذي اكتشفته في نفسي وفي كلّ البشر.

قالت لي: «فكّري بكل بساطة بأكثر قاعدة مقدسة في وسطك الذي تعيشين فيه. تأكدي أنه الأمر الذي يسيطر عليه النظام بإحكام وابدئي بمخالفته من دون ترددٍ.»

كانت تلك هي الكلمات الأخيرة التي قالتها، ليس لي فقط، كانت تلك الكلمات الأخيرة التي قالتها في حياتها كلها. فبعد أن قالت تلك الكلمات، انتفض جسدها بشكل غريب، وقعت على الأرض بلا حراك، وبعد ثوانٍ، بدأ الدم ينزف من مؤخرة رأسها.

كانت قد تلقت رصاصة من الخلف. لم أستوعب في اللحظات الأولى ما الذي حصل، ولكن في ما بعد، أخرجت الهاتف الخلوي الذي كنتُ أحمله هناك واتصلت برقم الطوارئ، أبلغت عن حادث إطلاق نار

في البناء الذي تجتمع فيه «إيلين دوليون» مع معجبيها. لم يكن عليّ أن أشرح لهم العنوان بالتفصيل، كان المكان معروفًا بالنسبة إليهم، وخرجت بسرعة من المكان غير راغبة بالتسبب لنفسي بالمشاكل.

شاهدت الأخبار في ذاك المساء الذي قضيته صامتة أمام حيرة عمتي. قالوا إن أول المتهمين متطرفون من باريس كانوا قد وجّهوا إليها تهديدات عديدة بسبب ما رأوه محاولة لإبعاد البشر عن الإيمان وجرّهم إلى الخرافة. لم أكترث بمن فعل ذلك حقًّا، ولكن كان غريبًا أن أكون أنا، دون كلّ الأوفياء لاجتماعاتها اليومية، من يشهد اللحظات الأخيرة في حياتها.

طلبت من أهلي أن يعيدوني سريعًا إلى دمشق. وحين وصلتُ، لم أبدُ بالسعادة التي كانوا يتوقعونها من صبية قضت ثلاثة أسابيع في باريس. في تلك الأثناء، كان قد حان موعد التقدم إلى مفاضلة القبول في الجامعات. كانت كلية الطب مضمونة بدرجاتي شبه التامة، إلا أنني، وبالخفاء عن أهلي، سجّلتُ رغبتي الأولى التمريض بدل الطب أو الصيدلة.

كانت تلك ربّما هي المرة الأولى التي أخالف فيها النظام؛ فقد كان جميع من يحصلون على درجاتٍ مرتفعة يدخلون كلية الطب، بينما قررت أنا أنّ هذا ليس ما أريد.

تشاجرت مع أهلي كثيرًا حين أعلنت النتائج، وعلموا أنني سأدرس التمريض بدلًا من الطب، ولكن لم أكن حينها أكترث لأحد؛ فقد كانوا جميعهم بالنسبة إليّ مجرّد أدواتٍ أو عبيد للنظام الذي صار عدوًّا لي من حينها.

كنتُ أفكر طوال الوقت في ما قالته لي: «فكري بكل بساطة بأكثر قاعدة مقدسة في وسطك الذي تعيشين فيه، تأكدي أنه الأمر

الذي يسيطر عليه النظام بإحكام وابدئي بمخالفته من دون ترددٍ».
أخيرًا، بعد سنة من التفكير، اكتشفتُ ما هي هذه القاعدة المقدسة التي لا يوجد تسامح في التعدي عليها: لا جنس خارج الزواج. بالنسبة إليّ، وبوصفي فتاة في مجتمع عربي، كانت تلك بالتأكيد هي القاعدة التي تُعَدّ مخالفتها الأكثر خطورة، بدأ الأمر بأخي صديقتي الذي كنتُ أدرسه الرياضيات، ومنذ ذلك الحين، لم يتوقف».

بقي أنور صامتًا. صحيح أنه لم يكن مذهولًا إلا بالأحداث الغريبة التي سردتها، وخصوصًا مقتل «إيلين»، ولكنه لم يكن يتوقع أن تكون ممارستها للجنس بهذا الشكل الموسّع مرتبطة بهذا القدر من الفلسفة الثقيلة. في ذلك الحين، تيقّن من شيء واحد... لا مانع لديه من ممارسة الجنس معها.

الأربعاء 21 تشرين الأوّل 2009

كانت بيسان وبانة في باص المدرسة. بيسان تنظر من الشباك وهي تتحدّث مع كنان على الهاتف، تخبره عن الاتصال الذي جاءهم من منزل كان يمتلكه والدهم، وعن الشكوك الغريبة التي أشعلها في داخلها، فيما كانت بانة مشغولة بالأغاني التي تسمعها من مشغّل الأغاني الصغير. إنّها ترفض أن تجلس بقرب أحدٍ من أصدقائها في الباص. الباص هو وقت الاسترخاء بالنسبة إليها.

رغم أن الإيمان الزائد الذي كانت تتحلّى به في هذه السنّ الصغيرة كان يجعلها تبدو كحمل وديع، إلا أنها كانت انتقائية جدًّا في اختيارها لأصدقائها، بل في اختيارها لكل شيءٍ. كانت لديها قدرة كبيرة على تنظيم وقتها، الأمر الذي كانت تفتقده أختها. فبيسان، رغم أنها كانت شعلة ذكاءٍ متّقدة، فقد كانت فاشلة في تنظيم وقتها، رغم كلّ محاولاتها الجدية. كانت تشعر بأن النهار قصيرٌ جدًّا، وأنه لا بد من أن يضيفوا إليه بعض الساعات كي يتمكن المرء من الدرس والحصول على بعض الدرجات في امتحان آخر السنة.

«لقد قالت لي بانة إنها عاودت الاتصال، ولكن الشخص الذي ردّ عليها لم يجب بشيءٍ. لو كان مخطئًا في الرقم الذي طلبه في المرة

الأولى لكان أجاب واعتذر. الأمر يزداد تعقيدًا، ولم أعد أفهم كيف لشخصٍ لا يريدك أن تكلمه أن يقوم هو بالاتصال بك؟

وهذه الشيطانة الصغيرة جاءتني بدليلٍ لا يمكن مقاومته يثبت أن للأمر علاقة بوالدي؛ فالرقم المتصل مسجل باسم صاحب منزلٍ اشتراه أبي مؤخّرًا في «ركن الدين». تأكدتْ من ذلك من رامي الذي لم يُبدِ أي حذرٍ، حين سألته عن الاسم، في التصريح بأنه يعود للمالك السابق لأحد منازل والدي.»

كانت مئات الأفكار تدور في رأس كنان. فكر قليلًا ثمّ توصل إلى أمرٍ قد يهدئ بال بيسان، ثمّ طلب منها أن تتصل به حين تصل إلى المنزل، فهو في طريقه إلى منزله.

خطر له أن يكون المتصل مستأجرًا جديدًا لا تعلم الفتيات بأمره، أو أيضًا أن يكون المنزل قد انتقل إلى ملكية أنور من دون أن تنتقل ملكية الهاتف معه. لسببٍ ما، لم يكن يريد أن يكون أنور حيًّا، لم يكن يريده أن يعود. ربّما أصبحت بيسان أكثر حاجة للحياة وله بعد وقوفها وجهًا لوجه مع الموت. كان يشعر بأن رجوع أنور لن يفعل شيئًا سوى زيادة الأمور تعقيدًا، لن يفعل سوى أن يجعل من عقلها مكانًا تتخبّط فيه الأفكار.

وربّما، بكل بساطة، لم يرد لها أن تحزن مرتين، الآن، وحين يموت أنور مرة ثانية.

كانت بيسان هي الفتاة التي يحب. ليس لأنها تلبي لديه احتياجات، بل ربّما لأنه يقوم هو بتلبية حاجاتٍ لديها؛ فالحبّ، بالنسبة إليه، كان عطاءً أكثر مما هو تلقٍّ. تذكّر ما عرفه عن هذا المحامي، وشعر بأنه الوحيد القادر، بشكل أو بآخر، على أن يقوده إلى حلّ ذلك اللّغز. بل من الواضح أنه الوحيد الذي يعرف الحقيقة.

ارتدى ملابسه بسرعة وخرج من المنزل من جديد. صعد في سيارته وتوجه إلى حيث قال له أخوه إنه يقطن. وعلى الطريق، تذكر أنه قد يكون في مكتبه، فغيّر وجهته. وصل إلى ساحة المحافظة - أو ساحة الشهيد يوسف العظمة - وأخذ يسير ببطءٍ حتّى رأى لافتة تشير إلى مكتبه. توقّف.

قرر أن ينتظره حتّى يخرج، ولكنه خاف من ألّا يكون موجودًا هناك، أخذ رقم المكتب الذي قرأه على اللافتة، واتصل ليتحقق من وجوده:

– مرحبًا.

– أهلًا.

– لو سمحتِ، هل الأستاذ رامي موجود؟

– نعم، ولكنه مشغول مع أحد موكليه، هل أترك له رسالة أو رقمًا يتصل به حين يفرغ؟

– لا، لا ضرورة لذلك، كنتُ أفكر في المرور عليه اليوم. إلى أي ساعة هو موجود في مكتبه؟

– لا أعتقد أنك ستجد وقتًا لذلك اليوم، فهو سيخرج بعد نصف ساعة.

– آه... حسنًا شكرًا لكِ. ربّما أمرّ عليه غدًا.

أجفله نقرٌ على زجاج نافذة السيارة. كان ذلك عامل خدمة ركن السيارات: «لو سمحت، هل ستبقى هنا؟ أم أنك ذاهب؟».

لا يعرف هذا الرجل، لكنه اعتقد أنه مسؤول عن موقف خاص لشركة ما هنا، حيث تندر المنازل السكنية. «أنا بانتظار صديقي... هل الركن ممنوع هنا؟»

«لا ليس ممنوعًا، ولكنه مأجور. لا تستطيع أن تنتظر هنا إن لم تدفع أجرة ساعة على الأقل. بإمكانك، لو أردت، أن تتجه إلى الأمام قليلًا. هناك متسع حيث يمكنك أن تقف لبعض الوقت من دون أن تحصل على مخالفة.»

لم يكن ممكنًا أن يبتعد عن المكان أنملة. لا يستطيع أن يفوّت لحظات خروج رامي من مكتبه. أخرج مئة ليرة ومرّرها لعامل خدمة الركن الذي عاد إليه بعد قليل وأعطاه الوصل مستغربًا إصراره على الانتظار في هذا المكان بالذات.

لم يكن يعرف عمّا كان يبحث بالضبط، لكنه كان يريد أن يعرف المزيد عن هذا الشخص الذي يثير ريبة بيسان كثيرًا، والذي يدفعها إلى اعتقاد ما يبدو اعتقاده مستحيلًا، مثل أن يكون شخصٌ قد دفن أمام أعين الجميع، لا يزال حيًّا.

شغّل بعض الموسيقى ليتسلّى ريثما يمرّ نصف الساعة. كانت أغنية «Love of my life» لكارلوس سانتانا. تجاوز انتظاره نصف الساعة، من الجيد أنه دفع أجرة ساعة. ظلّ مركّزًا نظره حتّى لا يخرج رامي في أي لحظة من دون أن ينتبه له.

بعد قليل، خرج رامي من مكتبه. لفت نظره شخصٌ قد استأجر مكانًا لركن سيارته من دون أن ينزل منها. ظلّ ينظر إليه. لاحظ كنان ريبته فأسرع يُخرج هاتفه تحسبًا، وتظاهر بأنه يتكلم فيه، كي يبرر جلوسه في السيارة من دون السير بها أو الترجل منها.

لم يبالِ رامي كثيرًا، وتابع باتجاه سيارته التي كانت قريبة من مكان سيارة كنان. صعد فيها وتناول بدوره هاتفه، ليتصل بأنور ويعلمه أنه آتٍ إليه. ثمّ شغّل السيارة، وشغّل الموسيقى التي يستمع إليها معظم الوقت حين يقود؛ سعاد ماسي.

انتظره كنان حتّى ابتعد قليلًا ثمّ انطلق خلفه، كان رامي يقود بسرعة كبيرة، وذلك كي يوفر بعض الوقت لأنه يعلم أنه سيضطر إلى أن يبطئ كثيرًا حين يلتقي بأنور.

كان رامي يتجه نحو ركن الدين، أي ليس باتجاه منزله الذي يقع في القصور، وفقًا لما أبلغه أخوه. ولكنه على الرغم من ذلك، ظلّ مصرًا على أن هناك تفسيرًا منطقيًا لذلك. قد يكون رامي ذاهبًا ليلتقي مستأجر هذا المنزل كي يسوي معه أمورًا قانونية لم يقم بتسويتها في حياة أنور.

بعد أن دخل في الطريق الرئيسي، انعطف يسارًا ليدخل في شرقي ركن الدين، الحيّ الأكثر رقيًا والأغلى سعرًا في تلك المنطقة. كان كنان جريئًا لدرجة أنه تبعه في الطرقات الفرعية بشكل يعرّضه لخطر اكتشاف أمره.

في الوقت نفسه، كان رامي شاردًا لدرجة أنه لم ينتبه لوجود من يتبعه منذ عشر دقائق. توقف أمام البناء الذي يقطن فيه أنور، أطفأ الموسيقى واتصل به على الرقم الذي كان قد حفظه على هاتفه باسم عماد زهران.

أما كنان، فقد سبقه إلى الأمام ليقضي الوقت بشراء شيءٍ من المتجر القريب. حين نزل أنور من البناء، كان كنان قد خرج من المتجر الذي اشترى منه علبة سجائر.

رآه كنان يصعد مع رامي، ولكنه لم يعرف من هو. كذلك، لاحظ شيئًا غريبًا حين قام بملاحقتهما من جديد؛ فقد خفض رامي سرعته إلى النصف، وبات يسير بسرعة خمسين كيلومترًا في الساعة تقريبًا، رغم أنهما على طريقٍ سريع.

حين وصلوا إلى مطعمٍ ودخلوه، علم كنان أن جلستهما هناك ستطول، فقرّر العودة إلى المنزل والاتصال ببيسان حتّى يعرف المزيد منها؛ علّه يجد تفسيرًا لما رآه اليوم، أو لا يجد أيَّ تفسير، وتكون شكوك بيسان في غير مكانها.

الخميس 22 تشرين الأوّل 2009

كان أنور جالسًا في منزله الذي بدأ يملّ منه؛ فهو لا يقوم بشيءٍ، ولا يمكنه التحرك بحرية خارجه، وعليه دائمًا أن ينتظر رامي كي يتحركا معًا بسيارته. لا يمكنه الذهاب إلى المطاعم أو الحانات التي كان يذهب إليها عادةً، حتّى لا يتعرف إليه الموظفون فيها ويهربوا فزعًا.

فكّر بسلوى التي كان على وشك الانفصال عنها قبل أن يموت - لم يعلم ماذا يسمّي ما حصل معه إذا لم يكن ذلك - والآن، بعد أن ابتعد عنها لأيام قليلة، وهو يعلم أن هناك حزنًا يتملكها، بدأ يشعر بالحنين إليها، وأخذ يعد نفسه لمراتٍ عديدة أنه سيسعى لحل مشاكلهما حين يعود.

صحيح أن الشرخ الموجود أصلًا بينهما والذي كبر بعد خيانتها له لم يلتئم، إلا أنه يعلم أنها لم تفعل ما فعلت إلا مرةً واحدة وأنها بالتأكيد لم تعدها ولن تعيدها. كذلك، كان متأكدًا من أنها كانت تحبه - على الأقل حين قامت بخيانته - وأنها لم تفعل ذلك إلا بهدف معاقبته. ولكنه على الرغم من ذلك، كان لا يزال يشعر بالمرارة كلما تذكّر حبوب منع الحمل التي كان يجدها في غرفتهما رغم مرور سنة

على الأقل على آخر مرة مارسا الجنس فيها، ومدى اليأس الذي كانت سلوى قد وصلت إليه حتى تلجأ إلى تلك الطريقة في سبيل إثارة اهتمامه من جديد، أو في سبيل استعادة طقوس الأيام التي كانت تحتاج فيها إلى تلك الحبوب.

في خضمّ تلك الذكريات، قاطعته ذكرى غريبة، ندى، تلك الفتاة التي جاءته من حيث لا يعلم، وجعلته يوافق، بمنتهى البساطة، على أمر كاد يدمّر عائلته منذ سنتين حين ارتكبته زوجته. تذكر الطريقة الخجولة التي كانت تطلب فيها ممارسة الجنس معه. كم كان غريبًا أن يرى فتاة تطلب أمرًا على هذا القدر من الوقاحة، بهذا القدر من الخجل!

رنّ هاتف منزله. كان يشعر بخطورة أن يردّ، وخصوصًا بعد أن اتصل تلك المرة بمنزل أسرته وعاودت بانة الاتصال به. ولكنه قرر أن يرفع السماعة، فلو كان أحدًا ممن يعلمون أنه على قيد الحياة، لا بد أن يقول له شيئًا يريحه.

رفع السماعة...

– أنا رامي، بإمكانك الحديث.

– أهلًا.

– اسمع... هناك شيءٌ نسيت إخبارك به يوم أمس، ولا بد أن أسألك عنه.

– ما هو؟

– أول من أمس، حين كنتُ في منزلك، سألتني بانة عن صاحب أحد المنازل التي اشتريتها أخيرًا، وقالت لي إنّ ابنته معها في المدرسة.

– وهل أجبتها؟؟

– نعم... قلتُ لها إنه أحد الذين اشتريتَ منزلًا منهم.

– من هو الشخص الذي سألت عن اسمه؟

– أحمد كمال شالاتي.

– يا لك من غبي... كيف تجيبها وأنتَ تعلم كم هو حساس الوضع الذي أنا فيه الآن، وكيف أنها تشك في أنني على قيد الحياة؟

– لماذا غضبتَ؟ ومن يكون هذا؟

– هو صاحب المنزل الذي أقطن فيه الآن.

– وما المشكلة؟ أنا لم أقل لها أي منزل هو الذي اشتريته منه.

– المشكلة أنني في نفس اليوم كنتُ قد اتصلتُ بالمنزل، ولكن لم أتكلم، وكانت بانة قد عاودت الاتصال بي لثقتها بأن المتصل هو أنا.

– أنتَ هو ذلك المتصل المزعج؟

– نعم أنا...

– قم غدًا أو اليوم بالحديث معهن عن تأجير المنازل كي تبدد تلك الشكوك بأنني ما زلتُ حيًّا، التي يبدو أنها تزداد لديهنّ.

– حسنًا، حسنًا، هل أمرّ عليك عندما أنتهي من العمل؟

– لا، أعتقد أن هناك ضيوفًا سيأتون إليّ.

– ضيوف؟ أي ضيوف هؤلاء؟

– ضيوف من نوع خاص.

أغلق الهاتف واستلقى ودمه يغلي مما أخبره به رامي للتوّ. لقد علم أن بانة لن تتركه من دون البحث عنه بعد أن أتتْها تلك الرؤيا. كان يعلم أنها تتمسك بما تؤمن به بشدة، وأنه لا يوجد في الكون كله كلمات قادرة على ثنيها عمّا تنوي فعله.

سيطر الخوف عليه، رغم أنه كان ينوي الرجوع في كلّ الأحوال، إلا أن حصول ذلك خارج إرادته كان صعبًا. هكذا هي كلّ قراراتنا... تصبح صعبة حين تأتي من خارج إرادتنا، حتّى لو كانت هي بالضبط ما نريده. بدأ يقلّب الاحتمالات في رأسه. لا بد من أن يكون هناك من يشغل المنزل ويقول إنه من اتصل. لا بد من أن يكون لديه سبب وجيه للاتصال؛ إذ لا يمكن أن يعزو شيئًا مريعًا كهذا إلى الصدفة.

كذلك كان عليه الانتقال إلى منزل آخر، ولكن ذلك شبه مستحيل؛ فكل مفاتيحه في مكتبه، ولا يمكنه أن يذهب إلى هناك من دون أن يلاحظه أحد. ذلك أنّ هناك منزل واحد شاغر يستطيع إبقاءه من دون مستأجرين، هو المنزل الذي في الوادي، المنزل الذي لا يستطيع المكوث فيه والبقاء بعيدًا عن رامي الذي يسيّر كلّ أموره الآن.

في تلك الأثناء كانت بيسان تجري اتّصال «ما بعد المدرسة» مع كنان. كانت تخبره عن مللها من تصنّع فتياتِ صفها محبتهنّ لها وتعاطفهن بعد أن توفي والدها، وكم أصبح الأمر مزعجًا حين بتن لا يجرؤون على التصرف بطريقة سيئة معها: «أنا أساسًا بالكاد كنتُ أستطيع تحمّلهنّ. الآن أصبحن أكثر إزعاجًا».

– لقد قمتُ بشيءٍ قد لا يعجبك.

– ما هو؟

– بعد محادثتنا الهاتفية يوم أمس، ذهبت إلى مكتب رامي، صديق والدك...

– ماذا؟ هل تحدثت معه في شيء؟

– لا بالطبع... انتظرته حتّى خرج من مكتبه وتبعته من دون أن يلاحظني. ليس هناك ما يدعو للقلق. كلّ ما فعله هو أنه أقلّ صديقًا له من منزله وذهبا ليتناولا غداءً متأخرًا في مطعم.

– أين كان هذا المنزل؟

– في ركن الدين...

قاطعه صمتها المفاجئ. لسببٍ ما، شعرت بيسان بأن هذا الصديق هو والدها، ثمّ نفضت الفكرة من رأسها بعد لحظاتٍ، إلا أن الشك ظل يراودها؛ فموضوع الرقم الذي اتصل منه شخصٌ ما بالمنزل ولم يتكلم ما زال محيّرًا ولم تجد له تفسيرًا حتّى الآن، على عكس بانة التي لم تعد تبحث، فقد باتت متأكدة بعد هذا الاتصال أن والدها على قيد الحياة، وأصبح الأمر بالنسبة إليها مسألة وقتٍ لا أكثر.

تذكرتْ أن هناك شيئًا يمكنها أن تعرف منه إن كان ذلك الصديق هو والدها أو لا.

– خطر لي شيء... هل اختلفت سرعة قيادته للسيارة بعد أن صعد معه هذا الصديق؟

– وما أهمية هذا الأمر؟

– أجبني فقط. هل اختلفت أم لا؟

– نعم، كانت السيارة على أوتوستراد العدوي تسير بسرعة أربعين أو خمسين. ولكن لماذا هذا السؤال؟

– هل أنتَ متأكد أن السرعة انخفضت؟

– نعم، ولكن لم أفهم ما علاقة هذا الأمر بموضوعنا.

– لا شيء، سأتصل بكَ بعد قليل.

شعرت بصدرها يضيق حتى ضاقت الغرفة بها. لم تعلم ماذا تفعل. لقد كانت تعرف أن والدها يكره السرعة الزائدة، بل ويكره السرعة الطبيعية. إلا إن شاءت الصدفة أن يكون لدى رامي صديقان لديهما هذه العقدة من السرعة الزائدة، وهي عقدة نادرة أساسًا.

لا شك في أن هذا الصديق هو والدها. قررت أن تواجه رامي بهذا الأمر، ولكنه سيجد مئة طريقة ليتهرب من الإجابة. لم تجد إلا حلًا واحدًا.

رامي هو رجل قانون، والطريقة الوحيدة لمواجهته هي بالقانون. أخرجت هاتفها الخلوي واتصلت به. طال رنين الهاتف قليلًا. شعرتْ بأنه يتهرب من الردّ على اتصالها. لم تستطع أن تصبر. خرجت بسرعة إلى غرفة الجلوس، وبحثت في الدفتر الذي كان والدها يضع فيه بطاقات جميع أصدقائه وعملائه. وجدت بطاقة رامي، واتصلت بمكتبه.

– مرحبًا.

– أهلًا. مكتب المحامي رامي أمين. كيف أساعدك؟

– أودّ أن أتكلم مع الأستاذ رامي لو سمحتِ.

– هو مشغول الآن مع أحد موكليه، هل تودين أن تتركي له رسالة، أو أن تحددي موعدًا معه؟

– لا... أود لو تذهبين إليه وتقولين له إنّ المتصل هو بيسان نجار، ابنة أنور نجار، وإن الأمر ضروريٌّ جدًّا.

ـ لحظة من فضلك.

استغربت رانيا هذا الاتصال. ذكّرها بذلك الذي وردها منذ عدة أيام، وكان يتعلق بأنور أيضًا. فكرت في أنها لا تريد المتاعب، ستقول له ما قالته بيسان وليتصرف هو. «أستاذ رامي، هناك فتاة تريد الحديث معك. تقول إنها بيسان ابنة السيد أنور، وإن الأمر ضروريٌّ جدًّا.»

بقي صامتًا لثوانٍ يفكر في ما تحدث به مع أنور للتوّ، ولكنه علم أن تهرّبه من الحديث معها سيعقّد الأمور أكثر. طلب من رانيا أن تحوّل الاتصال إلى مكتبه واعتذر من موكله لأنه مضطر إلى الرّد.

– مرحبًا رامي.

– أهلًا بيسان، كيف حالك؟

– بخير.

– ما الأمر؟ قالت لي رانيا إن الأمر ضروري.

– نعم ضروري. في المدرسة حين يطلبون وليّ أمر فتاة، فإنهم يصرّون على أن يأتي الأب، لا الأم، وقد استدعوا وليّ أمري اليوم بسبب تدني درجاتي في الامتحانات التمهيدية. لذلك، أريدك أن تمرّر لي اليوم شهادة وفاة والدي كي أقدمها لهم فيقبلوا بقدوم والدتي كوليّ أمري.

– لا يمكنني أن أعطيكِ ورقة مهمّة كهذه لتأخذيها إلى المدرسة. هناك الكثير من الأمور القانونية التي لا يمكن أن أسيّرها من دونها.

– حسنًا إذًا، هل بإمكانك أنتَ أن تمرّ على المدرسة - بصفتك محامي الأسرة - وتعرض عليهم شهادة الوفاة كي تحلّ هذه المشكلة؟ فأنا منذ الغد محرومة حضورَ الدروس بسببها.

– لا أعلم، لا أستطيع أن أعدك بشيءٍ، ثمّ أنني لم أستصدر هذه الورقة بعد؛ فهناك بعض الأمور العالقة بسبب عدم موافقة أسرة والدك على أن يفحصه الطبيب الشرعي.

أغلقت السماعة في وجهه. ارتعب. لا بد وأنها علمتْ شيئًا، فهو يعرف المدارس في سوريا ويعرف أن مديريها، في حالات الوفاة، لا يطلبون أوراقًا قانونية تثبت ذلك، كذلك فإنه متأكد أنه طلب من الشبان الذين علقوا أوراق النعي أن يعلقوا واحدة أمام مدرسة بيسان وبانة. إضافة إلى ذلك، فإن العام الدراسي بالكاد بدأ، وما زال الوقت مبكرًا على الامتحانات التمهيدية.

تجاهل موكله الذي كان جالسًا لا يفهم شيئًا. رفع السماعة من جديد واتصل بأنور. لكن هذا الأخير لم يردّ على اتصاله. اتصل

ثلاث مراتٍ، ولكنه لم يردّ على هاتف المنزل ولا على هاتفه الخلوي. اعتذر من الموكل وتابع حديثه معه حول المرافعة التي سيكون عليه تقديمها يوم غدٍ، حديثٌ لن يطول، سينهيه في ظرف عشر دقائق، ثمّ يذهب فورًا إلى أنور.

«ألن تردّ على الهاتفين اللذين يرنان؟»

طبع قبلة على عنقها، غير مبالٍ بما قالت، ثمّ زاح عنها واستلقى بجانبها؛ «لا بد أنه رامي»، قال لها بأنفاسٍ متقطعة، «ربّما كان يريد أن يمرّ عليّ بعد عمله؛ فقد قلتُ له إنني أنتظر ضيوفًا من نوع خاص اليوم».

اتصلت بيسان بكنان وهي غاضبة، بينما كانت تبحث عن حذائها مستعدة للخروج من المنزل؛ «فقط تعال وخذني، حين أراك سأشرح لكَ أين سنذهب».

«بيسان، ألن تأتي إلى الغداء؟ نحن بانتظاركِ.»

لم تُجب نداء أمها. بعد أن انتهت من ارتداء ملابسها، تناولت هاتفها وحقيبتها، وقالت لها إنها مضطرة للخروج، من دون أن تلمّح لها عن السبب. حين وصلت إلى الباب، نادت بانة:

«إياك أن تخبري أمكِ أي شيءٍ يتعلق بما عرفته منذ يومين عن صاحب الرقم ذي الاتصال الغريب. سأشرح لكِ كلّ شيءٍ عما قريب».

وصلتْ إلى أسفل البناء، لم تكن تطيق فكرة ذهابها لذلك المنزل المشؤوم، لم تكن قادرة على الذهاب وحدها إلى هناك بسيارة أجرة أو حتّى بسيارتهم التي كانت تسرقها من حين لآخر؛ فهي لا تعرف العنوان بالضبط؛ إذ إنها لم تزر يومًا ذلك المنزل الذي كان والدها قد اشتراه أخيرًا. ليس عليها سوى انتظار كنان.

وصل بعد عشر دقائق، ركبت السيارة على عجل وانطلق من دون أن يعرف وجهته.

«خذني إلى حيث ذهب رامي يوم أمس.»

بعد أن سارا لنحو خمس دقائق في السيارة وسط ازدحام فاقَمَ من شعورها بالاختناق وبضيق النفس، أخرجت هاتفها وفتحت إحدى الصور المحفوظة فيه. عرضتها على كنان وسألته: «هل هذا هو الرجل الذي ذهب إليه رامي؟».

أوقف كنان سيارته على جانب الطريق وتناول الهاتف من يد بيسان ليتمعّن أكثر بالصورة، أخذ يتأملها محاولًا ألا يخطئ، فهو يعلم كم يعني لها ردّه على هذا السؤال، إلا أن الجواب كان واضحًا، لم يكن يستطيع أن يخطئ من المسافة القريبة التي كان عليها من رامي وأنور.

«نعم... هذا هو»، كانت هذه الكلمات الثلاث كافية حتّى تجهش بيسان بالبكاء. حاول أن يهدئ من روعها، ولكنها طلبت منه بحسم أن يتابع القيادة، «دعك مني، فقط اجعلنا نصل إلى ذلك المكان اللعين».

كان رامي قد خرج من مكتبه واتجه نحو منزل أنور أيضًا. في الطريق، أرسل رسالة تنبيه لأنور: «بيسان تعرف شيئًا ما، كن حذرًا ما استطعت في الردّ على أي اتصال يأتيك أو حين يُطرق باب المنزل».

كان أنور مستلقيًا بالقرب من ندى حين رنّ هاتفه معلنًا تلقّي رسالة. قام يتفقّدها. قرأها ولم يفهم ما الذي حصل بالضبط. لكنه طلب من ندى أن تبقى قليلًا، وأن تتصرّف وكأنها هي صاحبة المنزل في حال مجيء أحدهم.

– لماذا؟ لم تكن بهذا الحذر قبلًا... هل هناك من اكتشف أمرك؟

– لا أدري، ولكن يبدو أن أمرًا ما قد حصل. طلب رامي مني أن أكون حذرًا في الرد على الهاتف وفي فتح الباب، وقال إن بيسان عرفت شيئًا.

– من هي بيسان؟

– ابنتي الكبرى.

– حسنًا، سأبقى. سأرتدي ملابسي خوفًا على مشاعر من قد يأتي.

في تلك اللحظات وصلت بيسان وكنان أمام المبنى. ترجّلا من السيارة مسرعين - عمليًا، بيسان هي التي كانت مسرعة، بينما حاول كنان مجاراتها فقط - توقّفا أمام المدخل. هذه المرة كان كنان هو من توقف وجارَته بيسان.

– ماذا هنالك؟ لماذا توقفتَ؟

– لا أعرف أي منزل هو، فحين رأيته، كان يخرج من بوابة المبنى.

– والحل؟

– لا أعلم، فلنسأل أحد السكان عن منزله.

– لا نستطيع، فهو بالتأكيد لم يسمح لأحد بأن يعرف من هو.

– نسأل عمّن كان في المنزل قبله.

– عليّ أن أقوم باتصال من أجل ذلك.

أخرجت هاتفها واتصلت ببانة، لم تجب. عاودت الاتصال بها من جديد، لكنها لم تجب أيضًا، فأطلقت شتيمة كانت المرة الأولى التي يسمعها كنان تتلفّظ بها ويعلم أنها قد تستخدمها. اتصلت بهاتف المنزل، فأجابت بانة لحسن حظها.

«لماذا لا تجيبين على هاتفك الخلوي؟... لا بأس. اسمعي، أريد اسم الشخص الذي قال رامي إنه باع منزلًا لأبي... صاحب الرقم نعم... متأكدة من الاسم؟... أشرح لكِ لاحقًا، وداعًا.»

نظرت حولها حتّى رأت أحدهم يدخل البناء، استوقفته وسألته: «أين يسكن السيد أحمد شالاتي؟»

– أبو كمال لم يعد يسكن في هذا البناء، انتقل منه منذ ثلاثة أشهر.

– أعلم، ولكن في أي شقة من المبنى كان يقيم؟

– في الطابق الثاني الشقة رقم 3.

– شكرًا لكَ.

لم يكن هناك من داعٍ ليسألها كنان عمّا حصل، بل جرى وراءها إلى الطابق الثاني على الدرج، وطلعا متجاهلين المصعد. حين وصلت إلى الطابق الثاني، شعرتْ بأنها لم تعد تتقن القراءة، كانت تحاول التقاط أنفاسها كي تقرأ الأرقام على أبواب البيوت، إلى أن وجدت أخيرًا الباب رقم 3.

وقفت أمامه مرتبكة، انتظرت قليلًا قبل أن ترن الجرس. كانت تعلم أنها تقف على بعد خطواتٍ من حقيقة قد تجعلها تفقد الثقة بكل شيءٍ في الحياة، تفقد الثقة حتّى بالموت. لم تكن تملك الجرأة الكافية حتّى ترن الجرس أو تقرع على الباب أو حتّى تحطمه ربّما.

لسببٍ لا تفهمه، تلت الصلاة الربانية وهي مغمضة العينين، ثمّ رنت الجرس رنة واحدة، وبقيت في انتظار الوجه الذي سيطالعها حين يفتح الباب. خطر لها أن من يسكن خلف هذا الباب - أيًا كان - لن يفتح لها. لكنها بالطبع لن تغادر قبل أن يفتح، حتّى ولو اضطرت إلى تحطيمه بيديها.

لن تسمح لأبيها بأن يبقى ميتًا. حتّى ولو كان من يقطن هذا المنزل، الرجل الذي رآه كنان، يشبه والدها فقط وليس والدها في الحقيقة. لن تستسلم للحقيقة. لم يعد مسموحًا أن يكون والدها ميتًا،

سوف يعيش. على أحدهم أن يجد طريقة كي يكون حيًا، على الأقل احترامًا للكمّ الهائل من الأمل في قلبها.

ما بال هذا الباب اللعين؟ لماذا لا يفتح؟ عادت لترنّ الجرس، ولكن هذه المرة من دون توقف: بقيت ترنّ وترنّ وترنّ حتّى فُتح.

فتحت لها ندى. وقفت أمامها صامتة وهي تحاول إخفاء ارتباكها، وخصوصًا أنها لا تعلم من تكون، فهو لم يصف لها شكل ابنته. ظلت صامتة تنتظر تحيّتها، لكن بيسان لم تبدِ أي نية في إلقاء التحية.

«أين هو؟»، قالت بيسان بنبرة هادئة، «قولي له إن ابنته هنا».

زاد ذلك من ارتباك ندى؛ فهي لم تتوقع أن يتحدث من يسأل عن شخصٍ ميت بهذه الثقة، ولكنها قررت أن تتصرّف كما لو أن هذا الموقف واجهها في منزلها؛ «أعتذر منكِ ولكنني لا أفهم عمّن تتحدثين. إن كنتِ تسألين عن زوجي، فهو ليس هنا، ربّما إذا أتيتِ بعد السابعة تجدينه».

من الواضح أن ذلك الجواب لم يعجب بيسان كثيرًا، ومن الواضح أيضًا أن ندى ليست لديها فكرة عن المعطيات التي تملكها بيسان حتّى تجيب بهذه الطريقة. «أرجوك ألا تتلاعبي بي، أنا أعلم إلى أين أنا آتية وأعلم - كما تعلمين أنتِ أيضًا - أن الذي في الداخل ليس زوجك.»

«أرجوك ليس لديّ وقت، عليّ أن...» لم تعد بيسان تحتمل مماطلة ندى. دفعتها عن الباب واندفعت بعنفٍ إلى داخل المنزل، بينما هبّ كنان يساعد ندى على النهوض عن الأرض في محاولة للتخفيف من وقع قسوة بيسان عليها.

وصلت بيسان إلى غرفة الجلوس، فلم تجد شيئًا هناك، سمعت صوت حركة في غرفة أخرى، جرت نحوها: طالعها وجه والدها وهو

ينظر نحوها من دون أيّ انطباع على وجهه، وآخر ما كانت تذكره هو تحوّل العالم الذي تراه من أفقي إلى عمودي وسماعها لخليط من الأصوات تنادي «بيسان، بيسان...».

لم يستطع عقلها تحمّل كلّ هذا دفعة واحدة. اليوم رأت شيئًا لا تراه كلّ يوم، بل تراه مرة واحدة في العمر، والبعض يعيش عمرًا كاملًا من دون أن يراه. كان ميتًا، لقد حضرت دفنه، وضعوه تحت الأرض، لم تكن جثة مشوّهة، ولم يكن تابوتًا مغلقًا. كان ميتًا والكل يؤكدون ذلك. تراكمت ملايين الأسئلة في رأسها، واصطخبت ملايين المشاعر في قلبها: سعادة، ارتباك، خجل، صدمة، كلها معًا. تزاحمت المشاعر والأسئلة، ولم يتمكن جسد بيسان الضعيف من تحمل كلّ هذا. فعلت كالنعامة حين تدفن رأسها في التراب، وهربت من الواقع الغريب حولها وداخلها، هربت من الوعي ومن حواسها.

اختفت بيسان. كانت مستلقية على الأرض لا تبدي أي حراكٍ. هربت مما حولها إلى داخلها. تحاول أن تعود عشرة أيام إلى الوراء، عشرة أيام لا أكثر. أن تعود إليها صورة العائلة المثالية التي كانت تراها كلّ يوم. أرادت أن تتبخّر من ذهنها صورة والدها الميت، وصورة والدتها التي تتحدث مع صديق والدها عن خيانتها له، وأن ترحل قبل كلّ شيءٍ صورة والدها الحيّ من جديد.

– اطلبوا الإسعاف أو الطبيب... قد يحصل لها شيء!

– ما من داعٍ، ندى ممرضة بإمكانها أن تتصرّف.

كانت بيسان في دنيا أخرى، كانت في عالمٍ جميل. عاد الزمن بها كما شاءت، ولكن ليس لعشرة أيامٍ فقط، بل اثنتي عشرة سنة إلى الوراء. كانت تقف أمام باب المدرسة... البابا والماما ينظران إليها بكل الحنان الذي في الدنيا، منتظرين اللحظة الأصعب، لحظة دخولها

من الباب. لم تستطع، كانت خائفة من هذا المكان الغريب الذي جاؤوا بها إليه، المكان الذي لم تستطع بعقلها الطفل أن تفهم لماذا هي مضطرة إلى دخوله.

هربت من أمام الباب وركضت نحو والديها من جديد، فنهض أنور واقترب منها ثمّ انحنى مجددًا ليعانقها مشجّعًا إياها، همس في أذنها كلماتٍ قليلة... «حين نفوز بجائزة أجمل فتاة وأجمل أبٍ، علينا أن نتمكن من قراءة الخطاب الذي سنتلوه. هنا سيعلمونك كيف تقرئين هذا الخطاب. وأنتِ ستعلّمينني القراءة بدوركِ»، شجعتها هذه الكلمات وعادت تسير بخطًى واثقة نحو المدرسة كما لو أنها تتجه لتسلّم الجائزة. بفضل تلك الكذبة البيضاء، ظلت بيسان تعتقد لثلاث سنوات أنها تعلّم والدها القراءة والكتابة والرياضيات.

دخلتْ من الباب واكتشفتْ أن الكثير من الأشياء في الداخل تشبه ما هو موجود في الخارج؛ الشمس هي ذاتها، والمعلمات يشبهن النساء اللواتي يسرن في الطريق. الأطفال ذاتهم، يميزهم فقط اللباس الموحّد، والجدران وصنابير المياه والحمامات...

«من الأفضل ألا تراكِ. اخرج أرجوك!»

سمعت صوتًا أنثويًا يتكلم من السماء. لم تعلم من هو الذي يُفضِّل ألا يراها؟ هل هو أبوها؟ لا بأس بذلك، فقد اقتنعت بضرورة قدومها إلى هنا ولن تبدأ بالبكاء، ليس اليوم على الأقل. ومن قال إنها هي الفتاة التي يجب ألا تُرى؟ هناك الكثير من الفتيات حولها، قد يكون الصوت القادم من السماء - أو أيًا كان مصدره - يتكلم على فتاة أخرى من المدرسة نفسها. عاد بها الزمن اثنتي عشرة سنة إلى الأمام.

تعالى ضجيج لا تعلم مصدره، حتّى بات يصمّ أذنيها. كلّ ما كانت تفكر فيه هو أن أذنيها لا يجوز أن تتعطلا، كي تتمكن من تعلم

لفظ الحروف ومن قراءة الخطاب حين تتسلم الجائزة المشتركة مع أبيها. لكن الضجيج كان يأبى التوقف، حتّى شعرت فجأة برشة مياه أعادتها اثنتي عشرة سنة إلى الأمـام، إلى حيث كانت ولم ترغب أن تكون.

استفاقت وشعرت بالغرفة التي تراها لأول مرة في حياتها تدور بسرعة حولها، إلى أن بدأت تهدأ شيئًا فشيئًا. نظرت حولها فلم ترَ سوى المرأة التي فتحت لها الباب، ولكنها كانت تنظر إليها وتطقطق بأصابعها أمام وجهها هذه المرة.

– ماذا حصل؟

– لا شيء، فقدتِ وعيك لدقائق.

تعرّفت بيسان إلى صوتها، إنه الصوت الذي تكلم من السماء منذ قليل. نظرت إلى وجهها. كانت امرأة جميلة. أجمل من أن تمنح صوتها للسماء فقط. اقتربت منها ندى وقالت لها: «اهدئي قليلًا. أعلم أن الكثير من الأمور تبدو غريبة، وأعلم أنكِ تفقدين الثقة في أي شيءٍ يقال لكِ. ولكن اهدئي وحسب، وبعد قليلٍ ستفهمين كلّ شيءٍ».

شعرت بيسان بحنان كانت في أمسّ الحاجة إليه بعدما أدركت أن الحنان الظاهر بين والديها لم يكن سوى تمثيلية تستحق جائزة كبيرة. كانت ندى تمسّد لها شعرها وتتفحّص حرارتها وتعدّ لها أنفاسها من دون أن تجعلها تنتبه لما تفعل.

مرّت نحو عشرة دقائق، وبيسان كالمخدّرة، لا تقدر أن تنظر إلا باتجاه الساعة المعلقة قبالتها، تراقب حركة عقرب الثواني. ورغم أنه يقوم بالدورة نفسها ويمرّ بالمكان نفسه، فقد كانت تشعر بأنّ شيئًا ما يتغير مع كل دورة يكملها.

– هل أنتِ جاهزة لتريه وتتكلمي معه؟

– أعتقد. لا أعرف أصلًا كيف يكون الشخص جاهزًا لأمر كهذا!

– سأعتبر ذلك الجواب «نعم»، هيا قومي معي... ولكن ارتدي كنزتك أولًا.

إلى أن قالت ندى جملتها الأخيرة، لم تكن بيسان قد أدركت أنها جُرّدَت من كنزتها ولا ترتدي سوى حمالة الصدر. وضعت الكنزة وسارت خلف ندى، توقفتا قبل الباب قليلًا. شدّت ندى على يدها وسارت بها نحو الباب. منه، خرجتا إلى فسحة الجلوس حيث كان أنور ورامي وكنان.

نظرت إلى والدها. قام أنور عن الأريكة وظلّ ينظر إليها منتظرًا أن تقوم هي بما تريد، فهو لم يعد قادرًا على معرفة ما عليه فعله. نزلتْ من عينها دمعة، وبدأت شفتها السفلى بالارتجاف. أمسكت بكتف ندى وأشاحت بوجهها عن أبيها وأخذت تبكي، من دون أن تفقد وعيها هذه المرة.

جرى أنور باتجاهها، وصل قربها ووضع يده على كتفها: «بيسو، بيسو، أرجوك حبيبتي أجيبيني، ألم تشتاقي إليّ؟ بيسو، على هذه الحال قد نخسر جائزة أفضل ابنة وأبيها». كان ذلك الرجل يعرف ماذا عليه أن يقول ومتى عليه أن يقوله.

التفتتْ نحوه وعانقته، ظلت تشدّ على عنقه حتّى خافت أن تحطمه. كانت تصرخ وتقول كلماتٍ معظمها لا يصل، بل يبقى عالقًا، تعوقه الدموع السائلة والأنف الذي سُدَّ من شدة البكاء والشفة المرتجفة. جملة واحدة فقط كانت واضحة لمن أحاطوا بها: «مشان الله ليش هيك عملت فينا؟ مشان الله ليش؟ ليش؟».

كان أنور يشمّ رائحتها، بينما أفلتت من عينيه دموع بدت كما لو أنها كانت مسجونة لسنين. عرف منها كم كان مشتاقًا إلى بطلته

الصغيرة من دون أن يدرك، شعر كم كان غبيًا حين فكّر بالتخلي عنها، وكم كان محظوظًا أصلًا أنه عاد إلى الحياة حتّى يتمكن من رؤيتها من جديد.

فكل ما كان يـردّده عن محبته لابنتيه بالتساوي كان مجرّد هراء. من كان يخدع؟ فهو يحبها أكثر من بانة، لطالما أذهلته بذكائها وبقدرتها على فهم العالم بواقعية. كانت تشبهه في الكثير من الأمور... عقدة أوديب التي لم تفارقه حتّى وفاة أمه، فوضويته في تحديد المواعيد وفي تنظيم الوقت، ونفوره من رجال الدين لسببٍ لا يفهمه كلاهما.

طال العناق. في النهاية، جلس الجميع. كانت بيسان، رغم اللحظات العاطفية العنيفة التي مـرّت بها منذ قليل، تنظر إليه شزرًا بانتظار تفسير. لكنه ظلّ صامتًا، يحسب في ذهنه الكثير من الاحتمالات، محاولًا معرفة ما الذي يمكن أن يبقيه لنفسه وما الأمور التي أصبح الآن مضطرًا إلى كشفها.

«حسنًا، ما حصل هو أنني متُّ وعدتُ للحياة، أو على الأقل هذا ما يبدو عليه الأمر. لقد كنتُ أنا بالفعل من دفنتموه، ولكن، لحسن حظي، كان ثمة أشخاص في المقبرة سمعوا صراخي فعرفوا أنني حيّ وقاموا بإنقاذي. أحدهم طبيب فسّر لي أن الأمر ممكن طبيًا، بعد ذلك، واجهتُ صعوبة في أن أعود إليكم، بسبب بعض الأمور المعقدة التي يصعب عليّ شرحها...».

علمت بيسان أنه يتحدث عن خيانة رامي وسلوى، وودّت لو تخبره أن أمها قد طلبت منذ عدة أيام من رامي أن يحلّ محل والدها، ولكنها لم تشعر بأنه الوقت المناسب لذلك، فاكتفت بالنظر إلى رامي وقالت: «نعم معك حق. أنا شخصيًا أواجه صعوبة في فهم بعضها».

«الآن، لم أعد أدري ماذا أفعل»، تابع أنور «أشعر بأنني بحاجة لإجازة طويلة، وخصوصًا من العمل، فقد جربت الذهاب إلى القبر ولا شيءَ معي».

استطاعت بيسان أن تتمالك نفسها من البكاء، إلا أنها كانت لا تزال عاجزة عن فهم الجزء الأصعب في القصة والذي مرّ عليه والدها ببساطة وكأنه أمر طبيعي: الموت ثمّ العودة للحياة. «ولكن لم أفهم الجزء المتعلق بالموت وبالعودة إلى الحياة من جديد؟ لا يبدو لي بالبساطة التي تتحدث بها»، قالت له. نظر أنور إلى ندى وعرف أنها الوحيدة القادرة على إنقاذه من هذا الموقف، فهو ما زال حتّى اليوم عاجزًا عن فهم الفرق بين الدورة الدموية الصغرى وتلك الكبرى. «هذه الشابة اللطيفة ممرضة»، قال محاولًا تدارك الموقف، «وقد تابعت حالتي منذ البداية. ربّما كانت تستطيع أن تشرح لك عن ذلك بالتفصيل».

استغرق الأمر نحو خمس عشرة دقيقة تقريبًا قضتها ندى في شرح الأمر لبيسان. طبعًا، كان ذلك ليتم بخمس دقائق لو كان نزار هو من يشرح.

إلا أن أسئلة بيسان، ومحاولات ندى في أن تكون لطيفة معها لم يسهّلا الأمر. كانت بيسان تحاول، بإصرار، البحث عن مجرم، ما وضع ندى تلقائيًا في موقع الدفاع عن جميع الأطباء حول العالم. الموضوع لم يعد شخصيًا، لم يعد يتعلق بموت والدها، شعرت بضرورة أن تبدأ بحماية حقوق الموتى ظاهريًا.

«هل ستعود إلى المنزل الآن؟» ما زال هذا السؤال يفاجئه، رغم أنه طُرح عليه عشرات المرات حتّى الآن. في جميع تلك المرات، إذا كان جوابه قد بدا قاسيًا على أشخاصٍ ليسوا من أسرته ولا يعرفون أحدًا من أسرته حتّى، فكيف سيكون وقعه على ابنته نفسها؟ هل ستشعر

بالتخلي؟ هل ستشعر بأن والدها قرر استغلال هذه الفرصة الذهبية كي يهرب منهن؟

«لست أدري!، أفكر في الأمر كلّ يوم وكل ساعة، وحتى الآن لا أدري إن كنتُ أريد العودة. لا أدري أساسًا كيف أعود من دون أن أخيف أحدًا، ولكن بالطبع لن أبقى متخفيًا إلى الأبد.»

خاب أمل بيسان بهذا الجواب، ولكنها على الرغم من ذلك لم تحاول أن تناقشه في ما قرّر أن يفعله، فهي تعلم أن التجربة التي مرّ بها لا يمكن أن يفهمها أيٌّ كان، حتّى ابنته.

قضت عنده عدة ساعات، ورامي وكنان يتفرجان وحسب لا يحاولان المشاركة في أحاديثهما التي بدت عائلية بحتة. بالكاد استطاع رامي أن يكظم غيظه بعد أن تعرّف إلى وجه كنان وتذكّر أنه من كان يتبعه وأنه هو من سبّب المصيبة التي شهد على آخرها: باب المنزل المفتوح وصوت الصراخ وبيسان الملقاة على الأرض.

كانت ندى قد ذهبت إلى عملها الذي تأخرت عليه أصلًا بسبب بيسان. وفي الطريق لم تكن تفكّر إلا في أنور. شعرت بخيبة أمل بسبب ظهور عائلته. شعرت بخيبة أمل لأنه وجد من يؤنس عليه وحدته غيرها. لم تفهم سبب هذا الشعور، فهو مجرّد رجل آخر من أولئك الذين حرقت أسماءهم منذ عدةِ أيام. ولكنه، لسببٍ ما، استطاع أن يخترق قلبها... هو بعمر والدها ربّما، يكبرها بثماني عشرة سنة أو أكثر (لا تعلم فهي لم تسأله عن عمره بالضبط)، ولكنه بدا شابًّا، كما لو أن خروجه من القبر قد جعله يبدأ حياته من الصفر ويمرّ بجميع مراحلها من جديد.

«كأننا وارينا شخصًا التراب بعد أن تيقّنا من موته، لكننا الآن نسمعه وهو ينادي: النجدة! ثمّ يرفع حجارة القبر بمعاناة تفوق طاقة أجسادنا وأرواحنا، منتصبًا نحو آفاقٍ أكثر علوًّا متنفسًا بحريّة.»

نيكوس كزانتزاكيس
تصوّف

الجمعة 23 تشرين الأوّل 2009

كانت تجلس أمام سريرها تنتظر استيقاظها، تراقب الابتسامة التي لا تفارق شفتيها وهي نائمة. كانت تحلم أحلامًا جميلة كما هو واضح. لم تملّ من الانتظار. سلّت نفسها في تصفّح الإنترنت الذي غابت عنه منذ توفي والدها. رأت بعض التعازي التي وضعها أصدقاؤها على صفحتها في موقع «فيسبوك»، لكن لم تؤثر أي منها في مشاعرها كما كان يتوقع من كتبوها.

رنّ هاتف بيسان، أخيرًا استيقظت. ولم يعد على بانة الانتظار كثيرًا. حسنًا، ربّما عليها الانتظار قليلًا ريثما تنتهي من الحديث مع كنان الذي اتصل بها يوقظها حتّى تبدأ بالدرس. لم يطل الاتصال كثيرًا، فقد استيقظت للتوّ وليست في مزاج يسمح لها بالحديث مع نفسها حتّى.

رمت الهاتف لتعاود النوم، لكن بانة قاطعتها: «أين ذهبتِ؟». لم تفهم بيسان سؤال بانة، أو ربّما هذا ما ادعته. تجاهلت أختها التي تنتظر منها جوابًا، وحاولت إبعادها قائلة: «بس لفيق».

«لن أنتظر... يوم أمس خرجتِ من المنزل وأنفاسكِ متقطعة وكنتِ تبكين. كان ذلك واضحًا على عينيكِ. وحين عدتِ كنتِ في أوج سعادتك. ورغم ذلك، لم تخبريني ما الأمر. ولماذا طلبتِ اسم المالك القديم لمنزل أبينا؟».

كانت تلك أسئلة كثيرة. لم تكن بيسان مستعدة لهذا الاستجواب الذي باغتها قبل أن تستجمع أنفاسها بعد نهارٍ مثير مرّت به يوم أمس.

نهضت وتوجّهت نحو الحمّام كي تغتسل، لكن بانة ظلت تلاحقها بعبارة كرّرتها عشرات المرات في الدقيقة الواحدة: «أجيبيني... أجيبيني!»، لم تعرها بيسان اهتمامًا كبيرًا. حاولت التفكير بطريقة لتجنّب سؤالها حتّى لا تضطر لإخبارها في الصباح الباكر أن والدها ما زال حيًّا.

دخلت إلى الحمّام وبيدها هاتفها الجوال. لكنها سرعان ما أدركت، حين أصبحت في الداخل، أنّ من الصعب عليها أن تتكلم. فبانة تتنصّت عليها وستسمعها لو همست... كتبت رسالة لوالدها تطلب منه العون في المأزق الذي هي فيه الآن: «بانة تسألني عن مكان ذهابي أمس، وتعلم أن للأمر علاقة بكَ لأني سألتها عن اسم صاحب المنزل. ماذا أفعل؟ ماذا أقول لها؟».

ظلت جالسة في الحمام بانتظار أن يردّ والدها، الذي صُعقَ بالرسالة التي وصلته. فهو لم يكن قد حسب حسابًا لهذا الأمر. لم يكن يعلم أن بيسان ليست سوى بداية السلسلة فقط، وأن هناك من بعدها المئات، ولا بدّ، ممّن سيعرفون أنه ما زال على قيد الحياة... قرر ألا يترك القدر يتحكم به، فهو لم يسمح بذلك يومًا.

«حاولي تأجيل فضولها إلى الغد، وتعالي اليوم في أي وقتٍ تستطيعين.»

ثمّ اتصل برامي وقال له أن يتصل ببيسان ويطلب منها القدوم معه إلى منزله، لأنه يريد أن يطلب منهما تجهيز شيءٍ له.

خرجت بيسان من الحمام وقالت لبانة أن ما حصل يوم أمس له علاقة بكنان وأنها سألت عن الاسم فقط لأن كنان ظن أنه يعرف صاحب المنزل ولأنه أراد التأكد وحسب. في تلك الأثناء، كان أنور قد أخرج قلمًا وورقة أخذ يكتب عليها أسماء أشخاص وينقل أرقام هواتفهم من على ذاكرة تليفونه الجوال.

اتصل رامي بمنزل أنور، فردّت عليه سلوى. تكلم معها برسمية لم تفهمها، فمن غير المفيد أن يعطيها أملًا يعرف أن أنور سيعود عاجلًا أو آجلًا ويسرقه منها. طلب بيسان، وبدا طلبه غريبًا لسلوى. تكلم معها.

ـ سأكون عندك بعد نصف ساعة، هل تكونين جاهزة حينها؟ أعتقد أن والدك كلمك.

ـ نعم سأكون جاهزة... لكن لا تتأخر.

بدأت سلوى تغضب من هذا الإهمال الذي تعرضت له للتوّ من قبل رامي. هل يعقل أنها ستضطر إلى معايشة شعور خيانة الحبيب مع الابنة؟ قد يكون مجرّد «مشوار» وعد بيسان به. وقد يكون شيئًا آخر... لم تعد تكترث، فقد شعرت بأن الكل تخلى عنها. لن تكترث اليوم إن تخلت عنها بيسان أو بانة أو رامي أو أيًا كان.

أما بيسان، فقامت بارتداء ملابسها للمرة الأسرع في حياتها. لم تضع أي شيءٍ من التبرج، ولم تصفّف شعرها حتّى. لم تقم بتنظيف

حذائها. ارتدت ملابسها واتجهت إلى الشرفة تنتظر رامي. شعرت بالوقت أطول مما توقّعت، وأكثر مللًا مما أرادت. كانت تشعر بأن هذا «المشوار» إلى عند والدها سينهي الكابوس الذي استمر لعشرة أيام ظنّ الجميع فيها أنها يتيمة الوالد.

أخيرًا، وصل رامي. نزلت بسرعة. كادت تتعثر على الدرج. صعدت في المقعد الأمامي من دون أن تلقي كلمة تحية واحدة، وضعت حزام الأمان وظلت صامتة منتظرة إياه أن يسير. رغم الفرح الذي حلّ عليها منذ الصباح، لم تنسَ بعد أنه الرجل الذي شارك أمها الفراش والرجل الذي سبب المشاكل التي حلّت بأسرتها.

انطلقت السيارة نحو ركن الدين. لم تكن الطرقات مزدحمةً؛ فالجميع ما زال يتمتّع بفترة النوم المقدسة ليوم الجمعة. حتى المدارس المسيحية التي لا تقفل أبوابها نهار الجمعة، لم تكن قد سرّحت طلابها بعد، بينما تتهيأ محالّ الطعام لمئات آلاف الطلبات التي تتلقاها في هذا اليوم.

وصلوا إلى المبنى. فجأةً، فقدت بيسان تلك الحماسة التي تملكتها منذ تسلمت الرسالة من والدها. تحوّلت إلى سيدة صغيرة رصينة، تسير بخطواتٍ متزنة؛ فقد غلب حقدها على رامي متعتَها في العودة إلى والدها الذي ظنت طوال الأيام العشرة الأخيرة أنه ميت.

دخلوا إلى المنزل بعد أن فتحَ لهم أنور بحذر أقل من ذاك الذي اعتاده أخيرًا. دخلوا، وانتظروه ريثما ينهي اتصاله مع ندى، التي بدأت بيسان تشعر تجاهها أيضًا بالغضب، بسبب تقرّبها غير المبرّر حتّى الآن من والدها. جلس أنور بقرب بيسان، وضمّ رأسها إلى كتفه طابعًا قبلة على شعرها الذي خرّبه - أكثر مما هو مخرّب - بمداعبته.

مرّر ورقة إلى بيسان، وأخرى إلى رامي. أخذا يقرآنها بتمعّن، ولكن لم يفهما فحواها... أسماء كاملة - الاسم واسم العائلة - وبجانب كلّ منها رقم هاتف خلوي على الأغلب، وأحيانًا رقم منزل أو مكتب. أسماء كثيرة ولكن كلها مألوفة.

احتوت ورقة رامي على أسماء الكثير من زبائن أنور أو ممن يتعاون معهم في عمله، أسماء بعض الشبان الذين يعملون لحسابه، حتّى اسم بائع الطعام القريب من عمله. اسم الطبيب نزار والأب نقولا وعمر حارس المقبرة. ثمّ اسم أخت رامي وسكرتيرته.

أما ورقة بيسان فاحتوت على أسماء أخوته وأخواته، أخوة سلوى وأخواتها، أصدقاء له وأصدقاء لسلوى. أسماء الكثير من أقربائه، وأسماء المدرسين والمدرسات في مدرسة بيسان وبانة، وكذلك المدير والموجهون المسؤولون عن بيسان وبانة.

كان واضحًا من الورقتين أنه ضمن اسم كلّ شخصٍ قد يكون سمع بخبر وفاته. ومن ثمّ قال لهما: «اطلبوا من الجميع أن يكونوا بعد غدٍ في مطعم «أوتار» في «باب توما» الساعة التاسعة مساءً، وقولوا للجميع إن الأمر يتعلق بوصيتي كي تجذبوهم إلى القدوم، ولا تسمحوا لأيٍّ منهم بالاعتذار أو التأخير.»

كان واضحًا أنه يريد أن يجمعهم كي يشرح الأمر مرة واحدة، يخبر الجميع بأنه ليس ميتًا حتّى يتمكن من متابعة حياته من دون أن يخاف من ذعر أيٍّ كان حين يراه حيًّا. أخيرًا، استطاع أن يأخذ القرار الذي استغرقه اتخاذه الكثير من الوقت: لن يستغل الفرصة الذهبية التي واتته ليبدأ كلّ شيءٍ من البداية.

ثمّ استدرك شيئًا، والتفت نحو رامي: «لا تتصل بالدكتور نزار. أنا سأتصل به».

تناول هاتفه من على الطاولة واتصل بأحدهم. تمنت بيسان ألا تكون ندى. فهي لم تعد تتحمل المزيد من أخبار خيانات والديها. كان واضحًا، من ارتجاف يد والدها التي تمسك بالقلم، ومن اهتزاز قدمه اليمنى الذي تضاعف، أنه شخصٌ ذو أهمية.

«ألو، كيف حالك دكتور؟ أنا أنور. أرجو أن تكون تذكرني. شكرًا لكَ... لديّ خدمة أطلبها منك... هل تذكر حين شرحتَ لي ولرامي لماذا خرجت من القبر حيًّا؟ كان شرحك جيدًا جدًّا. أريدك - لو سمحت - أن تقدم هذا الشرح من جديد... ليس لشخصٍ واحد، هذه المرة سيكون هناك الكثير من الأشخاص.»

الخميس 22 تمّوز 2010

كانت تستجم على شاطئ موناكو، تستمتع بالشمس اللافحة والراقية بشكل أو بآخر، تقرأ كتابًا لكاتبة سورية حاز أخيرًا جائزة الرواية العربية. رغم أنها لا تعلم ما هي هذه الجائزة، ولكنها جذبتها لقراءة الرواية.

كانت تريد المزيد من الثلج في عصيرها.

جاءها النادل وقدم لها وعاء الثلج. أخذت تتفرج حولها، رغم أنها على شاطئٍ شبه فرنسي، إلا أن العرب يملأون المكان من حولها. تسمع الكثير من العربية اللبنانية أو السورية و الأردنية. تعلم أن معظم هؤلاء الفتيات لا يخرجن في بلادهن إلى الشاطئ بملابس السباحة هذه، وإنما يفعلن ذلك هنا لأنهن يعلمن أن الأفواه لن تكون مستعدة للحديث عنهن في أول اجتماع صباحي للنساء.

رأت بعض الشبان السوريين يقومون بدفن صديقهم بالرمل وهو نائم ويرتلون فوق رأسه: «فليكن ذكره مؤبدًا». ذكّرها ذلك بأنور، وبقصته المثيرة التي تفكر بكتابة كتابٍ عنها لولا أنها لا تجيد الكتابة الأدبية ولا تعرف سوى كيف تكتب بيانات المرضى الذين يدخلون المستشفى.

ولكنها لا بد ستمارس الجنس مع كاتبٍ ما، وحينها ستحكي له القصة بتفاصيلها كي يكتبها. ولكن سيكون عليها أولًا أن تعرف كيف تميّز الكاتب من شكله حتّى تتعرّف إليه.

قاطعت أفكارها شابة جميلة مرت من جانبها. صعقتها رؤيتها. لم تصدق أنها قد تلتقي بها يومًا إلا في أحلامها. قررت أن تناديها باسمها حتّى تتأكد من هويتها، أن تلقي عليها التحية، خصوصًا أن الشقراوات - والأوروبيات منهن على وجه الخصوص - يبدون متشابهات في أعين العرب.

كانت تتجوّل مع شابٍّ أمامها، تتصرف كعاهرة صافية ولا تملك أي شيءٍ من الهدوء والخشوع اللذين كانت تتحلى بهما. تدخن سيجارة وتنفث دخانها في وجه الشاب الذي توحي ملامحه أنه أميركي لاتيني. نهضت نحوها لتلقي التحية.

«بونجور إيلين». التفتت نحوها لمجرّد سماعها الاسم. كانت ثملة بوضوح وتفوح منها رائحة الويسكي، مع أن الوقت ما زال عند الظهيرة. اقتربت منها ونفثت بعضًا من دخانها في وجهها وقالت لها: «بونجور ندى»، وتابعت طريقها متجاهلة الصدمة التي أوقعتها فيها. شعرت ندى بأن كلّ شيءٍ يتداعى من حولها، شعرت بالخديعة.

تذكرت أن الأخبار لم تظهر جثتها، ولم يتحدث أحد عن دفنها، وهي لم تتابع أخبارها بعد ذلك.

ظلت واقفة مصعوقة، تتابعها بنظرها وهي تبتعد مع رفيقها الوسيم، الذي كانت لا تزال تنفث الدخان بوقاحة في وجهه، بينما لا يبدي أي ردّ فعلٍ سلبي بسبب - على الأغلب - ثمالته هو الآخر. كانت لا تزال تحت الصدمة حين اقترب منها النادل الذي بات هناك نوع من الصداقة بينه وبينها، وبيده الثلج الذي طلبته. رآها مذهولة وهي تحدق بإيلين. اقترب منها ورمى بنظرة إلى إيلين ثمّ قال لها:

«ما الأمر؟ هل رأيتها أنتِ أيضًا تموتُ أمامَكِ؟»

قليلٌ من الموت — الموت حدثٌ لا رجوع منه... إلّا في الروايات. هنا، وهنا فقط، ممكن للبطل أن يموت في الصفحة الأولى، وأن يقضي وقته في الصفحات اللاحقة باحثًا عن حياته. هنا المساحة الوحيدة التي تحتمل معاكسة المنطق.

وإذا كانت العودة من الظلمات ممكنة، فهل تحافظ مفردات الحياة التي نستعيدها على المعاني ذاتها التي ألِفْناها؟ هل يظلّ لِكوب القهوة الطعمُ نفسه؟ أم نكتشف أنّ الحبّ لم يكن حبًّا، وأنّ النجاح لم يكن نجاحًا، وأنّ المعاني وهمٌ كالحياة التي تجرفنا بصخبها ثمّ تصمت فجأة؟

«الموت هو أسوأ ما في الحياة. لكنّ الحياة بعد المرور بالموت هي أسوأ...»



مناف زيتون — كاتب وصحفيّ سوريّ، من مواليد عام 1988، خرّيج كلّية الإعلام في جامعة دمشق. نشر على الإنترنت بعض الكتابات الأدبيّة، ومن ضمنها سلسلة من القصص القصيرة تحت عنوان «الفزّاعة».

رواية «قليلٌ من الموت» هي باكورة أعماله الأدبيّة المطبوعة.



نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان